سُورَةُ الحَجِّ

مَكِّيَّةٌ، غَيرَ سِتِّ آيَاتٍ، وَهِيَ:

هَذَانِ خَصْمَانِ... إِلَىٰ قَوْلِهِ... إِلَىٰ صِرَاطِ الحَمِيدِ

وَهِيَ ثَمَانٍ وَسَبْعُونَ آيَةً

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾

الزلزلة: شدّة التحريك والإزعاج، وأن يضاعف زليل الأشياء[1] عن مقارّها ومراكزها ولا تخلو ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ من أن تكون على تقدير الفاعلة لها، كأنها هي التي تزلزل الأشياء على المجاز الحكمي، فتكون الزلزلة مصدراً مضافاً إلى فاعله، أو على تقدير المفعول فيها على طريقة الاتساع في الظرف وإجرائه مجرى المفعول به؛ كقوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣]، وهي الزلزلة المذكورة في قوله: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾ [الزلزلة: ١]، واختلف في وقتها؛ فعن الحسن: أنها تكون يوم القيامة، وعن علقمة والشعبي: عند طلوع الشمس من مغربها، أمر بني آدم بالتقوى، ثم علل وجوبها عليهم بذكر الساعة، ووصفها بأهول صفة؛ لينظروا إلى تلك الصفة ببصائرهم ويتصوّروها بعقولهم، حتى يبقوا على أنفسهم ويرحموها من شدائد ذلك اليوم، بامتثال ما أمرهم به ربهم من التردى بلباس التقوى، الذي لا يؤمنهم من تلك الأفزاع إلا أن يتردوا به، وروي أنّ هاتين الآيتين نزلتا ليلاً في غزوة بني المصطلق، فقرأهما رسول الله ـ ﷺ ـ فلم ير أكثر باكياً من تلك الليلة، فلما أصبحوا لم يحطوا السروج عن الدواب، ولم يضربوا الخيام وقت النزول، ولم يطبخوا قدراً، وكانوا من بين حزين وباك ومفكر (٩٧٤)

---

٩٧٤ ـ ذكره البغوي (٣/ ٢٧٤) قال: «روي عن عمران بن حصين وأبي سعيد الخدري وغيرهما أن هاتين الآيتين نزلتا في غزوة بني المصطلق ليلاً، فنادى منادى رسول الله ـ ﷺ ـ فقرأها عليهم فلم ير أكثر =

---

(١) قوله «وأن يضاعف زليل الأشياء» أي يكرر انحراف الأشياء وتزحزحها عن مواضعها. وفي الصحاح: تقول زللت يا فلان ـ بالفتح ـ تزل زليلاً: إذا زل في طين أو منطق. (ع)

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾: منصوب بتذهل، والضمير للزلزلة، وقرئ: تذهل كل مرضعة، على البناء للمفعول: وتذهل كل مرضعة، أي: تذهلها الزلزلة، والذهول: الذهاب عن الأمر مع دهشة.

فإن قلت: لم قيل: ﴿مُرْضِعَةٍ﴾ دون مرضع؟

قلت: المرضعة التي هي في حال الإرضاع ملقمة ثديها الصَّبيّ، والمرضع: التي شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به[1]، فقيل: مرضعة؛ ليدل على

= باكياً من تلك الليلة... فذكر حديثاً طويلاً.

قال الزيلعي (٢/ ٣٧٧): غريب بهذا اللفظ اهـ.
وأخرج الترمذي (٥/ ٣٢٣) كتاب التفسير باب ومن سورة الحج حديث (٣١٦٩) من حديث الحسن عن عمران بن حصين قال: كنا مع النبي ـ ﷺ ـ في سفر فتفاوت بين أصحابه في السير، فرفع رسول الله ـ ﷺ ـ صوته بهاتين الآيتين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾ إلى قوله: ﴿عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾، فلما سمع ذلك أصحابه حثوا المطي، وعرفوا أنه عند قول يقول...». فذكر حديثاً طويلاً.
ورواه أيضاً النسائي في التفسير (٢/ ٨٢) رقم (٣٦٠)، وأحمد في المسند (٤/ ٤٣٢)، (٤/ ٤٣٥)، والحاكم في المستدرك (١/ ٢٨)، (٢/ ٢٣٣ ـ ٣٨٥)، (٤/ ٥٦٧).
قال الحاكم: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأكثر أئمة البصرة على أن الحسن قد سمع من عمران، غير أن الشيخين لم يخرجاه» اهـ. ووافقه الذهبي.
قال الحافظ: هكذا ذكره الثعلبي والبغوي. قالا: روي عن عمران بن حصين وأبي سعيد الخدري وغيرهما أن هاتين الآيتين نزلتا ليلاً في غزوة بني المصطلق إلى آخره، قلت: وهو ملفق من حديثيه المذكورين. وثالثهما ابن عباس فيما رواه ابن إسحاق عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: «بينما رسول الله ـ ﷺ ـ في مسيره في غزوة بني المصطلق إذ نزل عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ ـ إلى ـ ﴿شَدِيدٌ﴾، فوقف على ناقته، ورفع صوته ـ الحديث، ورواه الترمذي والنسائي والحاكم من طريق الحسن عن عمران بن حصين: «أن رسول الله ـ ﷺ ـ وهو في بعض أسفاره وقد تقارب من أصحابه السير ورفع بهاتين صوته: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ ـ إلى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾، فلما سمع أصحابه بذلك حثوا المطيّ، وعرفوا أنه عنده قول يقول: فلما التفوا حوله قال: أتدرون أي يوم ذلك؟ يوم ينادي آدم ـ الحديث. وفيه: فأبلس أصحابه حتى ما أوضحوا بضاحكة. فلما رأى ذلك قال: اعلموا وأبشروا ـ الحديث. وأما آخره فلم أره. انتهى.

---

(١) قال محمود: «يقال مرضع على النسب ومرضعة على أصل اسم الفاعل» قال أحمد: والفرق بينهما أن وروده على النسب لا يلاحظ فيه حدوث الصفة المشتق منها، ولكن مقتضاه أنه موصوف بها، =

أن ذلك الهول إذا فوجئت به هذه وقد ألقمت الرضيع ثديها، نزعته عن فيه، لما يلحقها من الدهشة، ﴿عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾: عن إرضاعها، أو عن الذي أرضعته وهو الطفل، وعن الحسن: تذهل المرضعة عن ولدها لغير فطام، وتضع الحامل ما في بطنها لغير تمام، قرئ: ﴿وَتَرَى﴾: بالضم من أريتك قائماً، أو رؤيتك قائماً[1]، و﴿ٱلنَّاسُ﴾: منصوب ومرفوع، والنصب ظاهر، ومن رفع جعل الناس اسم ترى، وأنثه على تأويل الجماعة، وقرئ: «سكرى»، و«بسكرى»، وهو نظير: جوعي وعطشى، في جوعان وعطشان، وسكارى وبسكارى؛ نحو: كسالى وعجالى، وعن الأعمش: «سكرى»، و«بسكرى»: بالضم، وهو غريب، والمعنى: وتراهم سكارى على التشبيه، وما هم بسكارى على التحقيق[2]؛ ولكن ما رهقهم من خوف عذاب الله هو الذي أذهب عقولهم، وطير تمييزهم، وردّهم في نحو حال من يذهب السكر بعقله وتمييزه، وقيل وتراهم سكارى من الخوف، وما هم بسكارى من الشراب.

فإن قلت: لم قيل أوّلا: ترون، ثم قيل: ترى، على الإفراد؟

قلت: لأنّ الرؤية أوّلاً علقت بالزلزلة، فجعل الناس جميعاً رائين لها، وهي معلقة أخيراً بكون الناس على حال السكر، لا بد أن يجعل كل واحد منهم رائيا لسائرهم.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾

قيل: نزلت في النضر بن الحارث، وكان جدلاً يقول: الملائكة بنات الله والقرآن:

= وعلى غير النسب يلاحظ حدوث الفعل وخروج الصفة عليه، وكذلك هو في الآية لقوله ﴿عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ فأخرج الصفة على الفعل، وألحقه التاء.

(١) قوله «أو رؤيتك قائما» لعله: أو رؤيت قائما. (ع)

(٢) قال محمود: «وقوله وترى الناس سكارى وما هم بسكارى: أثبت لهم أولا السكر المجازي، ثم نفى عنهم السكر الحقيقي» قال أحمد: والعلماء يقولون: إن من أدلة المجاز صدق نقيضه، كقولك: زيد حمار، إذا وصفته بالبلادة، ثم يصدق أن تقول: وما هو بحمار، فتنفي عنه الحقيقة، فكذلك الآية بعد أن أثبت السكر المجازى نفى الحقيقة أبلغ نفي مؤكد بالباء. والسر في تأكيده: التنبيه على أن هذا السكر الذي هو بهم في تلك الحالة ليس من المعهود في شيء، وإنما هو أمر لم يعهدوا قبله مثله، والاستدراك بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ راجع إلى قوله: ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ وكأنه تعليل لإثبات السكر المجازي، كأنه قيل: إذا لم يكونوا سكارى من الخمر وهو السكر المعهود، فما هذا السكر الغريب وما سببه؟ فقال: سببه شدة عذاب الله تعالى، ونقل عن جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنه أنه قال: هو الوقت الذي يقول كل من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيه «نفسي نفسي».

أساطير الأولين، والله غير قادر على إحياء من بلى وصار تراباً، وهي عامة في كل من تعاطى الجدال فيما يجوز على الله وما لا يجوز من الصفات والأفعال، ولا يرجع إلى علم ولا يعضّ فيه بضرس قاطع، وليس فيه اتباع للبرهان ولا نزول على النصفة، فهو يخبط خبطَ عشواء، غير فارق بين الحق والباطل، ﴿وَيَتَّبِعُ﴾: في ذلك خطوات ﴿كُلَّ شَيْطَانٍ﴾: عات، علم من حاله وظهر وتبين أنه من جعله وليًا له لم تثمر له ولايته إلا الإضلال عن طريق الجنة والهداية إلى النار ٢/ ٢٧أ، وما أرى رؤساء أهل الأهواء[١] والبدع والحشوية المتلقبين بالإمامة في دين الله إلا داخلين تحت كل هذا دخولاً أوليًا، بل هم أشدّ الشياطين إضلالاً وأقطعهم لطريق الحق؛ حيث دوّنوا الضلال تدويناً، ولقنوه أشياعهم تلقيناً، وكأنهم ساطوه بلحومهم[٢] ودمائهم؛ وإياهم عنى من قال [من الطويل]:

وَيَا رُبَّ مَقْفُوِّ الْخُطَا بَيْنَ قَوْمِهِ ... طَرِيقُ نَجَاةٍ عِنْدَهُمْ مُسْتَوٍ نَهْجُ

وَلَوْ قَرَءُوا فِي اللَّوْحِ مَا خُطَّ فِيهِ مِنْ ... بَيَانِ أُعْوِجَاجٍ فِي طَرِيقَتِهِ عَجُّوا[٣]

اللهم ثبتنا على المعتقد الصحيح الذي رضيته لملائكتك في سمواتك، وأنبيائك في أرضك، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين، والكتبة عليه مثل، أي: كأنما كتب إضلال من يتولاه عليه ورقم به لظهور ذلك في حاله، وقرئ: «أنه»، «فأنه»: بالفتح والكسر، فمن فتح فلأن الأول: فاعل كتب، والثاني: عطف عليه[٤]، ومن كسر فعلى حكاية المكتوب كما هو؛ كأنما[٥] كتب عليه هذا الكلام، كما تقول: كتبت: إنّ الله هو الغني الحميد، أو على تقدير: قيل، أو على أن كتب فيه معنى القول.

---

(١) قوله «رؤساء أهل الأهواء» إن كان مراده أهل السنة كما هو عادته في الكتابة من التشنيع عليهم، فينبغي مطالبته بالفرق بينهم وبين المعتزلة، حتى استحقوا التشنيع دونهم. (ع)

(٢) قوله «وكأنهم ساطوه بلحومهم» أي خلطوه. (ع)

(٣) يا: للتنبيه أو للنداء. والمنادى محذوف. والمقفو: المتبوع. والخطا: جمع خطوة، مستعارة للأفعال بجامع التبعية في كل، وكذلك الطريق مستعار للقفو من حيث اتباعه فيها ودوامه عليها. مستو: مستقيم. والنهج والمنهج والمنهاج: الطريق الواضح. والاعوجاج مستعار للبس وللكذب. وعجوا: ضجوا وصاحوا.

(٤) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وهذا لا يجوز لأنك إذا جعلت فأنه عطفاً على أنه بقيت أنه بلا استيفاء خبر لأنَّ مَنْ تولاه مَنْ فيه مبتدأه فإنْ قدرتها موصولة فلا خبر لها حتى يستقل خبراً، لأنَّه وإنْ جعلتها شرطية فلا جواب لها إذ جعلت فإنَّه عطفاً على أنَّه، قلت: وقد ذهب ابن عطية إلى مثل قول الزمخشري فإنَّه قال: وأنَّه في موضع رفع على المفعول الذي لم يسم فاعله، وأما الثانية عطف على الأولى مؤكد ومثلها وهذا رد واضح. انتهى. الدر المصون.

(٥) قوله «هو كأنما» لعله: أي كأنما. (ع)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾

قرأ الحسن: (من البعث): بالتحريك، ونظيره: الجلب والطرد، في الجلب والطرد؛ كأنه قيل: إن ارتبتم في البعث فمزيل ريبكم أن تنظروا في بدء خلقكم، والعلقة: قطعة الدم الجامدة، والمضغة: اللحمة الصغيرة قدر ما يمضغ، والمخلقة: المسواة الملساء من النقصان والعيب، يقال: خلق السواك والعود: إذا سواه وملسه، من قولهم: صخرة خلقاء، وإذا كانت ملساة؛ كأن الله ـ تعالى ـ يخلق المضغ متفاوتة: منها ما هو كامل الخلقة أملس من العيوب، ومنها ما هو على عكس ذلك، فيتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس في خلقهم، وصورهم وطولهم وقصرهم، وتمامهم ونقصانهم؛ وإنما نقلناكم من حال إلى حال ومن خلقة إلى خلقة: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾: بهذا التدريج قدرتنا وحكمتنا، وأن من قدر على خلق البشر من تراب أولاً، ثم من نطفة ثانياً ولا تناسب بين الماء والتراب، وقدر على أن يجعل النطفة علقة وبينهما تباين ظاهر، ثم يجعل العلقة مضغة، والمضغة عظاما: قدر على إعادة ما أبدأه، بل هذا أدخل في القدرة من تلك، وأهون في القياس، وورود الفعل غير معدي إلى المبين: إعلام بأن أفعاله هذه يتبين بها من قدرته وعلمه ما لا يكتنهه الذكر ولا يحيط به الوصف، وقرأ ابن أبي عبلة: «ليبين لكم»، و«يقرّ»: بالياء، وقرئ: «ونقرّ»، و«نخرجكم»: بالنون والنصب، ، و«يقرّ»، و«يخرجكم»، و«يقرّ»، و«يخرجكم»: بالنصب والرفع، وعن يعقوب: «نقرّ»: بالنون وضم القاف، من قرّ الماء إذا صبه، فالقراءة بالرفع إخبار بأنه يقرّ، ﴿فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾: أن يقرّه من ذلك، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: وهو وقت الوضع آخر ستة أشهر، أو تسعة، أو سنتين، أو أربع، أو كما شاء وقدّر، وما لم يشأ إقراره محته الأرحام أو أسقطته، والقراءة بالنصب: تعليل معطوف على تعليل، ومعناه: خلقناكم مدرجين هذا التدريج لغرضين، أحدهما: أن نبين قدرتنا، والثاني: أن نقر في الأرحام من نقرّ، حتى يولدوا وينشئوا ويبلغوا حد التكليف فأكلفهم؛ ويعضد هذه القراءة قوله: ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ [الحج: ٥]، وحده؛ لأن الغرض الدلالة على الجنس، ويحتمل: نخرج كل واحد منكم طفلاً، الأشد: كمال القوة والعقل والتمييز، وهو من ألفاظ الجموع التي لم

يستعمل لها واحد كالأسدّة[1] والقتود والأباطيل وغير ذلك، وكأنها شدّة في غير شيء واحد، فبينت لذلك على لفظ الجمع، وقرئ: «ومنكم من يتوفى»، أي: يتوفاه الله، ﴿أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾: الهرم والخرف، حتى يعود كهيئته الأولى في أوان طفولته: ضعيف البنية، سخيف العقل، قليل الفهم، بين أنه كما قدر على أن يرقيه في درجات الزيادة حتى يبلغه حد التمام، فهو قادر على أن يحطه حتى ينتهي به إلى الحالة السفلى، ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾، أي: ليصير نساء، بحيث إذا كسب علماً في شيء لم ينشب أن ينساه ويزل عنه علمه حتى يسأل عنه من ساعته، يقول لك: من هذا؟ فتقول: فلان، فما يلبث لحظة إلا سألك عنه، وقرأ أبو عمرو: «العمْر»: بسكون الميم، الهامدة: الميتة اليابسة؛ وهذه دلالة ثانية على البعث، ولظهورها وكونها مشاهدة معاينة، كررها الله في كتابه، ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾: تحرّكت بالنبات وانتفخت، وقرئ: «وربأت»، أي: ارتفعت، البهيج: الحسن السارّ للناظر إليه.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾

أي: ذلك الذي ذكرنا من خلق بني آدم وإحياء الأرض، مع ما في تضاعيف ذلك من أصناف الحكم واللطائف، حاصل بهذا وهو السبب في حصوله، ولولاه لم يتصور كونه، وهو: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الثابت الموجود، وأنه قادر على إحياء ٢/ ٢٧ب الموتى وعلى كل مقدور، وأنه حكيم لا يخلف ميعاده، وقد وعد الساعة والبعث، فلا بدّ أن يفي بما وعد.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾

عن ابن عباس: أنه أبو جهل بن هشام، وقيل: كرر كما كررت سائر الأقاصيص، وقيل: الأوّل في المقلدين، وهذا في المقلدين، والمراد بالعلم: العلم الضروري،

---

(١) قوله «من ألفاظ الجموع التي لم يستعمل لها واحد كالأسدة والقتود والأباطيل» الذي في الصحاح «السدّ» بالفتح: واحد الأسدة وهي العيوب اهـ وهي مثل العمى والصمم والبكم على غير قياس، وكان قياسه: سدود. والقتد: خشب الرحل، وجمعه: قتود وأقتاد. والباطل: ضد الحق، والجمع أباطيل على غير قياس كأنهم جمعوا إبطيلا. وفيه أيضاً قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي قوته وهو واحد جاء على بناء الجمع، مثل «آنك» وهو الأسرب، ولا نظير لهما، ويقال له: جمع لا واحد له من لفظه، مثل: أبابيل، وعباديد، ومذاكير. (ع)

وبالهدى: الاستدلال والنظر؛ لأنه يهدي إلى المعرفة، وبالكتاب المنير: الوحي، أي: يجادل بظن وتخمين، لا بأحد هذه الثلاثة، وثنى العطف: عبارة عن الكبر والخيلاء، كتصعير الخدّ وليّ الجيد، وقيل: عن الإعراض عن الذكر، وعن الحسن: «ثاني عطفه»، بفتح العين، أي: مانع تعطفه ﴿لِيُضِلَّ﴾: تعليل للمجادلة، قرئ بضم الياء وفتحها.

فإن قلت: ما كان غرضه من جداله الضلال: ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فكيف علل به؟ وما كان ـ أيضا ـ مهتدياً حتى إذا جادل خرج بالجدال من الهدى إلى الضلال؟

قلت: لما أدّى جداله إلى الضلال، جعل كأنه غرضه، ولما كان الهدى معرضا له فتركه وأعرض عنه وأقبل على الجدال بالباطل، جعل كالخارج من الهدى إلى الضلال، وخزيه: ما أصابه يوم بدر من الصغار والقتل، والسبب فيما مني به من خزي الدنيا وعذاب الآخرة: هو ما قدمت يداه، وعدل الله في معاقبته الفجار وإثابته الصالحين.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾

﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾: على طرف من الدين لا في وسطه وقلبه، وهذا مثل؛ لكونهم على قلق واضطراب في دينهم، لا على سكون وطمأنينة، كالذي يكون على طرف من العسكر، فإن أحسّ بظفر وغنيمه قرّ واطمأن، وإلا فرّ وطار على وجهه، قالوا: نزلت في أعاريب قدموا المدينة، وكان أحدهم إذا صح بدنه ونتجت فرسه مهراً سرياً، وولدت امرأته غلاماً سويًا، وكثر ماله وماشيته، قال: ما أصبت منذ دخلت في ديني هذا إلا خيراً، واطمأن، وإن كان الأمر بخلافه، قال: ما أصبت إلا شرًا، وانقلب، وعن أبي سعيد الخدري أن رجلاً من اليهود أسلم فأصابته مصائب، فتشاءم بالإسلام، فأتى النبي ـ ﷺ ـ فقال: أقلني، فقال: «إِنَّ الإِسْلاَمَ لاَ يُقَالُ» (٩٧٥)؛ فنزلت، المصاب بالمحنة بترك التسليم لقضاء الله والخروج

---

٩٧٥ ـ عزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢/ ٣٧٩) لابن مردويه في تفسيره، والواحدي في أسباب النزول، والحديث رواه العقيلي في الضعفاء (٣/ ٣٦٨)، من حديث عنبسة أخو أبي ربيع السمان عن أبي الزبير عن جابر أن رسول الله ـ ﷺ ـ أتاه يهودي فقال: يا رسول الله، اعرض عليّ الإسلام، فعرض عليه فأسلم فرجع إلى منزله، فأصيب في عينيه، وأصيب في بعض ولده، فرجع إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: أقلني فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن الإسلام لا يقال إنك إن رجعت عن الإسلام ضربت عنقك مرتين، إن الإسلام يسبك الرجال يخرج خبثهم كما يخرج الكور ـ أو =

إلى ما يسخط الله: جامع على نفسه محنتين، إحداهما: ذهاب ما أصيب به، والثانية: ذهاب ثواب الصابرين، فهو خسران الدارين، وقرئ: «خاسر الدنيا والآخرة»: بالنصب والرفع، فالنصب: على الحال، والرفع: على الفاعلية، ووضع الظاهر موضع الضمير، وهو وجه حسن، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف، استعير ﴿ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾: من ضلال من أبعد في التيه ضالاً، فطالت وبعدت مسافة ضلالته.

فإن قلت: الضرر والنفع منفيان عن الأصنام مثبتان لها في الآيتين، وهذا تناقض.

قلت: إذا حصل المعنى ذهب هذا الوهم؛ وذلك أن الله ـ تعالى ـ سفه الكافر بأنه يعبد جمادًا لا يملك ضرًا ولا نفعاً، وهو يعتقد فيه بجهله وضلاله أنه يستنفع به حين يستشفع به، ثم قال: يوم القيامة يقول هذا الكافر بدعاء وصراخ، حين يرى استضراره بالأصنام ودخوله النار بعبادتها، ولا يرى أثر الشفاعة التي ادعاها لها، ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾: أو كرّر يدعو، كأنه قال: يدعو يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه، ثم قال: لمن ضره بكونه معبوداً أقرب من نفعه بكونه شفيعاً لبئس المولى، وفي حرف عبد الله: «من ضره»: بغير لام، المولى: الناصر، والعشير: الصاحب؛ كقوله: ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٨].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾

هذا كلام قد دخله اختصار، والمعنى: إن الله ناصر رسوله في الدنيا والآخرة، فمن كان يظنّ من حاسديه وأعاديه أن الله يفعل خلاف ذلك ويطمع فيه، ويغيظه أنه يظفر بمطلوبه، فليستقص وسعه وليستفرغ مجهوده في إزالة ما يغيظه، بأن يفعل ما يفعل من بلغ

= قال الكير ـ خبث الذهب والفضة والحديد إذا ألقي فيه».

قال: وهذا يروى بغير هذا الإسناد، وخلاف هذا اللفظ بإسناد أصلح من هذا.

قال الحافظ: هكذا ذكره الواحدي في الأسباب، لكن بغير إسناد فقال: روى عطية عن أبي سعيد، فذكره سواه وأخرجه ابن مردويه من رواية عطية عن أبي سعيد قال: «أسلم رجل من اليهود فذهب ماله وولده، وتشاءم بالإسلام ـ الحديث نحوه» وإسناده ضعيف وأخرج العقيلي من رواية عنبسة بن سعيد عن أبي الزبير عن جابر قال: «أتى النبي ـ ﷺ ـ يهودي فأسلم على يديه، ثم رجع إلى منزله فأصيب في عينه وفي ولده، فرجع إلى النبي ـ ﷺ ـ فقال: أقلني ـ الحديث» ولم يذكر فيه نزول الآية. وعنبسة ضعيف جدًا. انتهى.

منه الغيظ كل مبلغ حتى مدّ حبلاً إلى سماء بيته فاختنق، فلينظر وليصوّر في نفسه أنه إن فعل ذلك هل يذهب نصر الله الذي يغيظه؟ وسمى الاختناق قطعاً؛ لأنّ المختنق يقطع نفسه بحبس مجاريه، ومنه قيل للبهر: القطع[1]، وسمى فعله كيداً؛ لأنه وضعه موضع الكيد؛ حيث لم يقدر على غيره، أو على سبيل الاستهزاء؛ لأنه لم يكد به محسوده إنما كاد به نفسه، والمراد: ليس في يده إلا ما ليس بمذهب لما يغيظه، وقيل: فليمدد بحبل إلى السماء المظلة، وليصعد عليه فليقطع الوحي أو ينزل عليه، وقيل: كان قوم من المسلمين لشدّة غيظهم وحنقهم على المشركين يستبطؤن ما وعد الله رسوله من النصر، وآخرون من المشركين يريدون اتباعه ويخشون ألاّ يثبت أمره؛ فنزلت، ٢/٢٨أ وقد فسر النصر: بالرزق، وقيل: معناه: أن الأرزاق بيد الله، لا تنال إلا بمشيئته ولا بد للعبد من الرضا بقسمته، فمن ظنّ أن الله غير رازقه وليس به صبر واستسلام، فليبلغ غاية الجزع وهو الاختناق؛ فإن ذلك لا يقلب القسمة ولا يردّه مرزوقاً.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾

أي: ومثل ذلك الإنزال أنزلنا القرآن كله، ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى﴾: به الذين يعلم أنهم يؤمنون، أو يثبت الذين آمنوا ويزيدهم هدى، أنزله كذلك مبينا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾

الفصل مطلق يحتمل الفصل بينهم في الأحوال والأماكن جميعاً، فلا يجازيهم جزاء واحداً بغير تفاوت، ولا يجمعهم في موطن واحد، وقيل: الأديان خمسة: أربعة للشيطان وواحد للرحمن، جعل الصابئون مع النصارى؛ لأنهم نوع منهم، وقيل: ﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾: يقضي بينهم، أي: بين المؤمنين والكافرين، وأدخلت: ﴿أَنَّ﴾ على كل واحد من جزأي الجملة؛ لزيادة التوكيد؛ ونحوه قول جرير [من البسيط]:

إِنَّ الْخَلِيفَةَ إِنَّ اللَّهَ سَرْبَلَهُ ... سِرْبَالَ مُلْكٍ بِهِ تُزْجَى الْخَوَاتِيمُ[2]

---

(١) قوله «ومنه قيل للبهر القطع» أي تتابع النفس. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) لجرير. وقوله: «إن الله سربله» خبر «إن» الأولى، وكررها لتوكيد التوكيد، وسربله: كساه بالملك الشبيه بالسربال. ويروى: سربال ملك به، أي: بذلك اللباس أو الملك، تزجى: أي تساق الخواتيم: جمع خاتم ـ بالفتح والكسر ـ والأصل: خواتم، فزيدت الياء. والمراد بها: عواقب الأمور الحميدة. وقال أبو حيان: يحتمل أن خبر إن قوله (به تزجى) وجملة «إن الله سربله» اعتراضية: ويروى: «به ترجى» بالراء، وليحرر. =

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾﴾

سميت مطاوعتها له فيما يحدث فيها من أفعاله ويجريها عليه من تدبيره وتسخيره لها: سجوداً له؛ تشبيهاً لمطاوعتها بإدخال أفعال المكلف في باب الطاعة والانقياد، وهو السجود الذي كل خضوع دونه.

فإن قلت: فما تصنع بقوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾، وبما فيه من الاعتراضين: أحدهما: أنّ السجود على المعنى الذي فسرته به، لا يسجده بعض الناس دون بعض، والثاني: أنّ السجود قد أسند على سبيل العموم إلى من في الأرض من الإنس والجن أولاً، فإسناده إلى كثير منهم آخراً مناقضة؟

قلت: لا أنظم كثيراً في المفردات المتناسقة الداخلة تحت حكم الفعل؛ وإنما أرفعه بفعل مضمر يدل عليه قوله: ﴿يَسْجُدُ﴾ أي: ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة وعبادة، ولم أقل: أفسر يسجد الذي هو ظاهر بمعنى: الطاعة والعبادة في حق هؤلاء؛ لأن اللفظ الواحد لا يصحّ استعماله في حالة واحدة على معنيين مختلفين، أو أرفعه على الابتداء والخبر محذوف وهو مثاب؛ لأنّ خبر مقابله يدل عليه، وهو قوله: ﴿حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾، ويجوز أن يجعل ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾: خبراً له، أي: من الناس الذين هم الناس على الحقيقة وهم الصالحون والمتقون، ويجوز أن يبالغ في تكثير المحقوقين بالعذاب، فيعطف كثير على كثير، ثم يخبر عنهم بحقّ عليهم العذاب، كأنه قيل: وكثير وكثير من الناس حق عليهم العذاب[1]، وقرئ: «حق»: بالضم، وقرئ: «حقًّا»، أي: حق عليهم العذاب حقًّا، ومن أهانه الله ـ بأن كتب عليه الشقاوة لما سبق في علمه من كفره أو فسقه ـ فقد بقي مهانا[2]، لن تجد له مكرماً، وقرئ: «مكرَم»، بفتح الراء، بمعنى: الإكرام، إنه

= ينظر: ديوانه ص (٦٧٢)، وخزانة الأدب (١٠/ ٣٦٤ ـ ٣٦٨)، وأمالي الزجاجي ص (٦٢)، وتذكرة النحاة ص (١٣٠) ولسان العرب (ختم).

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ بعد أنْ حكى عن الزمخشري الوجهين الأخيرين قال: وهذان التخريجان ضعيفان ولم يُبَيّن وَجهَ ضَعْفِهما قلت أما أولهما فلا شك في ضعفه إذ لا فائدة طائلة في الإخبار بذلك، وأما الثاني فقد يظهر وذلك أنَّ التكرير يفيد التكثير وهو قريب من قولهم عندي ألفٌ وألفٌ. انتهى. الدر المصون.

(٢) قوله «من كفره أو فسقه قد بقي مهانا» مبني على أن الفاسق واسطة بين المؤمن والكافر. وأنه يخلد في النار كالكافر، وهو مذهب المعتزلة، والحق عند أهل السنة أنه مؤمن، وإن دخل النار يخرج منها بالشفاعة أو بمجرد فضله تعالى. (ع)

﴿يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾: من الإكرام والإهانة؛ ولا يشاء من ذلك إلا ما يقتضيه عمل العاملين واعتقاد المعتقدين.

﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾

الخصم: صفة وصف بها الفوج أو الفريق، فكأنه قيل: هذان فوجان أو فريقان مختصمان، وقوله: (هذان): للفظ، و(اختصموا): للمعنى؛ كقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟﴾ [محمد: ١٦]، ولو قيل: هؤلاء خصمان، أو اختصما: جاز، يراد المؤمنون والكافرون، قال ابن عباس: رجع إلى أهل الأديان الستة، ﴿فِى رَبِّهِمْ﴾ أي: في دينه وصفاته، وروي أن أهل الكتاب قالوا للمؤمنين: نحن أحق بالله، وأقدم منكم كتاباً، ونبينا قبل نبيكم، وقال المؤمنون: نحن أحق بالله، آمنا بمحمد، وآمنا بنبيكم وبما أنزل الله من كتاب، وأنتم تعرفون كتابنا ونبينا ثم تركتموه وكفرتم به حسداً، فهذه خصومتهم في ربهم، ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: هو فصل الخصومة المعني بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، وفي رواية عن الكسائي: «خصمان»: بالكسر، وقرئ: «قطعت»: بالتخفيف، كأنّ الله تعالى يقدّر لهم نيراناً على مقادير جثثهم تشتمل عليهم كما تقطع الثياب الملبوسة، ويجوز أن تظاهر على كل واحد منهم تلك النيران كالثياب المظاهرة على اللابس بعضها فوق بعض؛ ونحوه: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ [إبراهيم: ٥٠]. ﴿ٱلْحَمِيمُ﴾: الماء الحار، عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: لو سقطت منه نقطة على جبال الدنيا لأذابتها، ﴿يُصْهَرُ﴾: يذاب، وعن الحسن بتشديد الهاء للمبالغة، أي: إذا صبّ الحميم على رءوسهم كان تأثيره في الباطن نحو تأثيره في الظاهر، فيذيب أحشاءهم وأمعاءهم كما يذيب جلودهم، وهو أبلغ من قوله: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، والمقامع: السياط، في الحديث: «لَوْ وُضِعَتْ مُقْمَعَةٌ مِنْهَا فِي الأَرْضِ فَاجْتَمَعَ عَلَيْهَا الثَّقَلاَنِ مَا أَقَلُّوهَا»[1] (٩٧٦)،

---

٩٧٦ ـ أخرجه الحاكم (٤/ ٦٠٠) حدثنا والعباس محمد بن يعقوب ثنا بحر بن نصر الخولاني ثنا عبد الله بن وهب أخبرني عمرو بن الحارث عن دراج أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ ﷺ ـ قال: لو أن مقمصاً من حديد وضع في الأرض فاجتمع له الثقلان ما اقلوه من الأرض». =

---

(١) وهو عند أحمد وأبي يعلى من رواية ابن لهيعة عن دراج. لفظه في قوله: ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾﴾: لو وضع مقمع منها في الأرض... الحديث.

وقرأ الأعمش: «ردوا فيها»، والإعادة والرد لا يكون إلا بعد الخروج، فالمعنى: كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم فخرجوا أعيدوا فيها، ومعنى الخروج: ما يروى عن الحسن أنّ النار تضربهم ٢/٢٨ب بلهبها فترفعهم، حتى إذا كانوا في أعلاها ضربوا بالمقامع فهووا فيها سبعين خريفاً، (و) قيل لهم: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾، والحريق: الغليظ من النار المنتشر العظيم الإهلاك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

﴿يُحَلَّوْنَ﴾عن ابن عباس: من حليت المرأة فهي حال[1]، ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾: بالنصب على: «ويؤتون لؤلؤاً»؛ كقوله: «وحورا عيناً»، و«لؤلواً»: بقلب الهمزة الثانية واواً، ولولياً؛ بقلبهما واوين، ثم بقلب الثانية ياء كأدل، ولول كأدل فيمن جرّ، ولؤلؤ، وليليا، بقلبهما ياءين، عن ابن عباس: وهداهم الله وألهمهم أن يقولوا: الحمد لله الذي صدقنا وعده، وهداهم إلى طريق الجنة، يقال: فلان يحسن إلى الفقراء وينعش المضطهدين، لا يراد حال ولا استقبال؛ وإنما يراد استمرار وجود الإحسان منه والنعشة في جميع أزمنته وأوقاته؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: الصدود منهم مستمرّ دائم، ﴿لِلنَّاسِ﴾ أي: الذين يقع عليهم اسم الناس من غير فرق بين حاضر وباد وتانىء[2] وطارىء ومكي وآفاقي، وقد استشهد به أصحاب أبي حنيفة قائلين: إنّ المراد بالمسجد الحرام: مكة، على امتناع جواز بيع دور مكة وإجارتها، وعند الشافعي: لا يمتنع ذلك،

= ورواه أحمد في المسند (٣/٢٩)، وأبو يعلى في مسنده (٢/٥٢٦) رقم (١٣٨٨)، قال الهيثمي في المجمع (١٠/٤٥): «رواه أحمد وأبو يعلى وفيه ضعفاء وقد وثقوا» اهـ.
قال الحافظ: وهو عند أحمد وأبي يعلى من رواية ابن لهيعة عن دراج. لفظه في قوله: (ولهم مقامع من حديد): لو وضع مقمع منها في الأرض... الحديث. انتهى.

---

(١) قوله «من حليت المرأة فهي حال» الذي في الصحاح: حليت المرأة، أي: صارت ذات حلي، هي حلية وحالية. (ع)

(٢) قوله «وتانىء» في الصحاح: تنأت بالبلد تنوءاً: قطنته. والناتىء من ذلك. (ع)
(تنبيه) ما في نسخ الكشاف «ابن عمر» تصحيف، وإنما هو «ابن عمرو».

وقد حاور إسحاق بن راهويه؛ فاحتج بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم﴾ [الحج: ٤٠]، وقال: أنسب الديار إلى مالكيها، أو غير مالكيها، واشترى عمر بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنه ـ دار السجن من مالكيه أو غير مالكيه، ﴿سَوَآءً﴾ بالنصب: قراءة حفص، والباقون على الرفع، ووجه النصب أنه ثاني مفعولي جعلناه، أي: جعلناه مستوياً، ﴿ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾: وفي القراءة بالرفع، الجملة مفعول ثان، الإلحاد: العدول عن القصد، وأصله: إلحاد الحافر، وقوله: ﴿بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ﴾: حالان مترادفتان، ومفعول (يرد): متروك ليتناول كل متناول، كأنه قال: ومن يرد فيه مراداً ما عادلاً عن القصد ظالماً، ﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ يعني: أنّ الواجب على من كان فيه أن يضبط نفسه ويسلك طريق السداد والعدل في جميع ما يهمّ به ويقصده، وقيل: الإلحاد في الحرم: منع الناس عن عمارته، وعن سعيد بن جبير: الاحتكار، وعن عطاء: قول الرجل في المبايعة: «لا والله، وبلى والله»، وعن عبد الله بن عمر أنه كان له فسطاطان، أحدهما: في الحل، والآخر: في الحرم، فإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الحل، فقيل له، فقال: كنا نحدث أن من الإلحاد فيه أن يقول الرجل: «لا والله، وبلى والله» ٩٧٧، وقرئ: «يرد»: بفتح الياء من الورود، ومعناه: من أتى فيه بإلحاد ظالماً، وعن الحسن: ومن يرد إلحاده بظلم، أراد: إلحاداً فيه، فأضافه على الاتساع في الظرف، كمكر الليل، ومعناه: من يرد أن يلحد فيه ظالماً، وخبر إن: محذوف؛ لدلالة جواب الشرط عليه، تقديره: إن الذين كفروا ويصدون عن المسجد الحرام نذيقهم من عذاب أليم[1]، وكل من ارتكب فيه ذنباً فهو كذلك، عن ابن مسعود: الهمة في الحرم تكتب ذنباً.

---

٩٧٧ ـ أخرجه الطبري (٩/ ١٣٢) رقم (٢٥٠٢٨) من طريق مجاهد عن ابن عمرو قال: كان فسطاطان... فذكره. وعزاه ابن حجر، والزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف لأبي الوليد الأزرقي في تاريخ مكة. وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٣٤)، وعزاه لسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن منيع =

---

(١) قال السمين الحلبي: الشيخ قال في تقدير الزمخشري بعد المسجد الحرام لا يصح قال، لأنَّ الذي صفة للمسجد الحرام فموضع التقدير هو بعد والباد يعني أنَّه يلزم من تقديره الفصل بين الصفة والموصوف بأجنبي وهو خبر إنَّ فيصير التركيب هكذا، إنَّ الذينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله والمَسْجد الحرام نُذِيقهُم مِنْ عَذَابٍ أليم الذي جَعَلْنَاهُ للنَّاس، وللزمخشري أن ينفصل عن هذا الاعتراض بأنَّ الذي جعلناه لا نسلم أنه نعت للمسجد حتى يلزم ما ذكر بل يجعله مقطوعاً عنه نصباً أو رفعاً ثم قال الشيخ لكن مقدر الزمخشري أحسن من مقدر ابن عطية لأنَّه يدل عليه الجملة الشرطية بعد من جهة لحظ وابن عطية لحفظ من جهة المعنى لأنَّ من أُذِيقَ العذاب خَسِرَ وَهَلِكَ. انتهى. الدر المصون.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾

واذكر حين جعلنا ﴿لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾: مباءة، أي: مرجعاً يرجع إليه للعمارة والعبادة، رفع البيت إلى السماء أيام الطوفان، وكان من ياقوتة حمراء، فأعلم الله إبراهيم مكانه بريح أرسلها يقال لها الخجوج، كنست ما حوله، فبناه على أسه القديم، وأن هي المفسرة.

فإن قلت: كيف يكون النهي عن الشرك والأمر بتطهير البيت تفسيراً للتبوئة؟

قلت: كانت التبوئة مقصودة من أجل العبادة، فكأنه قيل: تعبدنا إبراهيم قلنا له: ﴿لَا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ﴾: من الأصنام والأوثان[1] والأقذار أن تطرح حوله، وقرئ: «يشرك»: بالياء على الغيبة.

﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ﴾: ناد فيهم، وقرأ ابن محيصن: «وآذن»، والنداء بالحج: أن يقول: حجوا، أو عليكم بالحج، وروي أنه صعد أبا قبيس فقال: «يا أيها الناس، حجوا بيت ربكم» (٩٧٨)، وعن الحسن أنه خطاب لرسول الله ـ ﷺ ـ أمر أن يفعل ذلك في حجة الوداع (٩٧٩)، ﴿رِجَالًا﴾: مشاة جمع: راجل، كقائم وقيام، وقرئ: «رُجالاً»: بضم الراء مخفف الجيم ومثقلة، و«رجالى» كعجالى؛ عن ابن عباس، ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾: حال معطوفة على حال، كأنه قال: رجالاً وركبانا، ﴿يَأْتِينَ﴾: صفة لكل ضامر؛ لأنه في

= وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

قال الحافظ: أخرجه الطبري والأزرقي في تاريخ مكة من رواية شعبة عن منصور عن مجاهد قال: «كان لعبد الله بن عمرو بن العاص... فذكره». انتهى.

٩٧٨ ـ عزاه الحافظ والزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف للثعلبي عن الحسن.

قال الحافظ: أخرجه الثعلبي عن الحسن فذكره. وسنده إليه في أول الكتاب. انتهى.

٩٧٩ ـ ذكره السيوطي في الدر (٤/٦٣٧)، وعزاه لابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: لما أمر الله إبراهيم أن ينادي في الناس بالحج صعد أبا قبيس فوضع أصبعيه في أذنيه: «إن الله كتب عليكم الحج فأجيبوا ربكم».

قال الحافظ: أخرجه الطبري عن ابن عباس، بلفظ: «قام عند الحجر»، وفي رواية: «عند مقامه. وقال: يا أيها الناس، حجوا بيت ربكم، فأجابوه: لبيك اللهم لبيك». انتهى.

---

(١) قوله «والأوثان» في الصحاح «الوثن»: الصنم. (ع)

معنى الجمع، وقرئ: «يأتون»: صفة للرجال والركبان، والعميق: البعيد، وقرأ ابن مسعود: «معيق»، يقال: بئر بعيدة العمق والمعق[1].

﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾

نكر المنافع؛ لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية لا توجد في غيرها من العبادات، وعن أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ: أنه كان يفاضل بين العبادات قبل أن يحج، فلما حج فضل الحج على العبادات كلها؛ لما شاهد من تلك الخصائص، وكنى عن النحر والذبح بذكر اسم الله؛ لأن أهل الإسلام لا ينفكون عن ذكر اسمه إذا نحروا أو ذبحوا، وفيه تنبيه على أن الغرض الأصلي فيما يتقرّب به إلى الله أن يذكر اسمه، وقد حسن الكلام تحسيناً بيناً: أن جمع بين قوله: ﴿لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾، وقوله: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم﴾، ولو قيل: لينحروا في أيام معلومات بهيمة الأنعام ٢/٢٩أ، لم تر شيئاً من ذلك الحسن والروعة، الأيام المعلومات: أيام العشر عند أبي حنيفة؛ وهو قول الحسن وقتادة، وعند صاحبيه: أيام النحر، البهيمة: مبهمة في كل ذات أربع في البر والبحر، فبينت بالأنعام: وهي الإبل، والبقر، والضأن، والمعز، الأمر بالأكل منها أمر إباحة؛ لأن أهل الجاهلية كانوا لا يأكلون من نسائكهم، ويجوز أن يكون ندباً؛ لما فيه من مساواة الفقراء ومواساتهم ومن استعمال التواضع، ومن ثمة استحب الفقهاء أن يأكل الموسع من أضحيته مقدار الثلث، وعن ابن مسعود أنه بعث بهدي، وقال فيه: إذا نحرته فكل وتصدّق وابعث منه إلى عتبة، يعني: ابنه ٩٨٠، وفي الحديث: «كُلُوا وَٱدَّخِرُوا وَٱتَّجِرُوا»[2] (٩٨١).

---

٩٨٠ ـ أخرجه الطبراني في الكبير (٩/ ٣٩٩) رقم (٩٧٠٢): حدثنا علي بن عبد العزيز ثنا أبو نعيم ثنا سفيان عن حبيب بن أبي ثابت عن إبراهيم عن علقمة، أن عبد الله بعث معه بهدي فقال: كل أنت وأصحابك ثلثاً، وتصدق بثلثه، وابعث إلى آل أخي عتبة بثلث قيل لسفيان تطوع قال: نعم.
ورواه في (٩/ ٢٧٦) رقم (٩١٨١)، قال الهيثمي في المجمع (٣/ ٢٣١): «رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح» اهـ.
قال الحافظ: أخرجه الطبري من رواية حبيب بن أبي ثابت عن إبراهيم عن علقمة ـ أن عبد الله بعث معه بهدي. فقال: كل أنت وأصحابك ثلثاً، وتصدق بثلث، وابعث إلى أخي عتبة بثلث.
تنبيه: وقع في نسخ الكشاف يعني ابنه وهو تحريف، وإنما هو أخوه. انتهى.
٩٨١ ـ أخرجه مالك (٢/ ٤٨٤) كتاب الضحايا: باب ادخار لحوم الأضاحي حديث (٧) ومن طريقه مسلم =

---

(١) قوله «بعيدة العمق والمعق» في الصحاح «المعق»: قلب العمق، والأمعاق: مثل الأعماق، وهو ما بعد من أطراف المفاوز. (ع)

(٢) قوله «واتجروا» الظاهر أن المراد: اطلبوا الأجر بالصدقة. (ع)

﴿ٱلْبَآئِسَ﴾: الذي أصابه بؤس، أي: شدة، و﴿ٱلْفَقِيرَ﴾: الذي أضعفه الإعسار.

= (٣/ ١٥٦١) كتاب الأضاحي: باب بيان ما كان من النهي عن أكل لحوم الأضاحي بعد ثلاث في أول الإسلام وبيان نسخه وإباحته إلى متى شاء حديث (٢٨/ ١٩٧١) وأبو داود (٢/ ١٠٨ ـ ١٠٩) كتاب الأضاحي: باب في حبس لحوم الأضاحي رقم (٢٨١٢) والنسائي (٧/ ٢٣٥) كتاب الأضاحي: باب الادخار من الأضاحي (٤٤٣١) وأحمد (٦/ ٥١) والبيهقي (٩/ ٢٩٣) عن عبد الله بن أبي بكر عن عمرة بنت عبد الرحمن عن عائشة قالت: «دفَّ أهل أبيات من أهل البادية حضره الأضحى زمان رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: «ادخروا ثلاثاً ثم تصدقوا بما بقي»، فلما كان بعد ذلك قالوا: يا رسول الله، إن الناس يتخذون الأسفية من ضحاياهم ويحملون منها الوذك. فقال: «وما ذاك» قالوا: نهيت أن تؤكل لحوم الأضاحي بعد ثلاث. فقال: «إنما نهيتكم من أجل الدافة، فكلوا وادخروا وتصدقوا».

وأخرجه الدارمي (٢/ ٧٩) كتاب الأضاحي: باب في لحوم الأضاحي من طريق محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر عن عمرة عن عائشة بنحوه وأخرجه البخاري (١٠/ ٢٦) كتاب الأضاحي: باب ما يؤكل من لحوم الأضاحي وما يتزود منها حديث (٥٥٧٠) والبيهقي (٩/ ٢٩٣) من طريق يحيى بن سعيد عن عمرة عن عائشة قالت: الضحية كنا نملح منه فنقدم به إلى النبي ـ ﷺ ـ بالمدينة فقال: «لا تأكلوا إلا ثلاثة أيام»، وليست بعزيمة، ولكنه أراد أن نطعم منه.

وأخرجه البخاري (٩) كتاب الأطعمة: باب ما كان السلف يدخرون في بيوتهم (٥٤٢٣)، وأحمد (٦/ ١٢٧ ـ ١٢٨)، والنسائي (٧/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦)، كتاب الأضاحي: باب الادخار من الأضاحي (٤٤٣٣)، والبيهقي (٩/ ٢٩٢) من طريق عبد الرحمن بن عابس عن أبيه قال: قلت لعائشة: أنهى النبي ـ ﷺ ـ أن تؤكل لحوم الأضاحي فوق ثلاث قالت: ما فعله إلا في عام جاع الناس فيه، فأراد أن يطعم الغني الفقير، وإن كنا لنرفع الكراع فنأكله بعد خمسة عشر قيل: ما اضطركم إليه: فضحكت قالت: «ما شبع آل محمد ـ ﷺ ـ من خبز بر مأدوم ثلاثة أيام حتى لحق بالله».

وأخرجه الترمذي (٤/ ٧٩) كتاب الأضاحي: باب في الرخصة في أكلها بعد ثلاث (١٥١١) عن عابس بن ربيعة قال: قلت لأم المؤمنين: أكان رسول الله ـ ﷺ ـ ينهى عن لحوم الأضاحي قالت: «لا ولكن قلَّ من كان يضحي من الناس فأحب أن يطعم من لم يكن يضحي، فلقد كنا نرفع الكراع فنأكله بعد عشرة أيام».

وقال الترمذي: هذا حديث صحيح وأم المؤمنين هي عائشة زوج النبي ـ ﷺ ـ وقد روي عنها هذا الحديث من غير وجه. وفي الباب عن جماعة من الصحابة وهم أبو سعيد الخدري وسلمة بن الأكوع وجابر وثوبان وبريدة.

حديث أبي سعيد الخدري:

أخرجه البخاري (١٠/ ٢٦) كتاب الأضاحي: باب ما يؤكل من لحوم الأضاحي وما يتزود منها حديث (٥٥٦٨) والنسائي (٧/ ٢٣٣) كتاب الأضاحي: باب (٢٦) من طريق يحيى بن سعيد عن القاسم بن محمد عن ابن خباب أن أبا سعيد الخدري قدم من سفر فقدم إليه أهله لحماً من لحوم الأضاحي فقال: ما أنا بآكله حتى أسأل فانطلق إلى أخيه لأمه قتادة بن النعمان وكان بدرياً، فسأله عن ذلك فقال: إنه قد حدث بعدك أمر نقضاً لما كانوا نهوا عنه من أكل لحوم الأضاحي بعد ثلاثة أيام.

وأخرجه مسلم (٣/ ١٥٦٢) كتاب الأضاحي: باب بيان ما كان من النهي عن أكل لحوم الأضاحي =

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾

= بعد ثلاث وبيان نسخه (٣٣/ ١٩٧٣)، وأحمد (٣/ ٨٥)، وأبو يعلى (٢/ ٤١١) رقم (١١٩٦)، من طريق أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «يا أهل المدينة لا تأكلوا لحوم الأضاحي فوق ثلاث»، فشكوا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ أن لهم عيالاً وحشماً وخدماً، فقال: «كلوا وأطعموا وادخروا».

ـ وللحديث طريق آخر عن أبي سعيد:

أخرجه أحمد (٣/ ٢٣)، والنسائي (٧/ ٢٣٤) كتاب الأضاحي: باب (٢٦)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٤/ ١٨٦ ـ ١٨٧)، وأبو يعلى (٢/ ٢٨١) رقم (٩٩٧) من طريق سعد بن إسحاق قال: حدثتني زينب بنت كعب عن أبي سعيد، أن رسول الله ـ ﷺ ـ «نهى عن لحوم الأضاحي فوق ثلاثة أيام ثم رخص أن نأكل وندخر» قال: فقدم قتادة بن النعمان أخو أبي سعيد فقدموا إليه قديد الأضحى، فقال: كأن هذا من قديد الأضحى قالوا: نعم. قال: أليس قد نهى عنه رسول الله ـ ﷺ ـ قال أبو سعيد: بلى إنه قد حدث فيه أمر كان نهانا عنه أن نحبسه فوق ثلاثة أيام، ورخص لنا أن نأكل وندخر.

حديث سلمة بن الأكوع:

أخرجه البخاري (١٠/ ٢٦) كتاب الأضاحي: باب ما يؤكل من لحوم الأضاحي وما يتزود منها حديث (٥٥٦٩)، ومسلم (٣/ ١٥٦٣) كتاب الأضاحي: باب بيان النهي عن أكل لحوم الأضاحي بعد ثلاث وبيان نسخه حديث (٣٤/ ١٩٧٤) عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: من ضحى منكم فلا يصبحن في بيته بعد ثالثة شيئا فلما كان في العام المقبل قالوا: يا رسول الله نفعل كما فعلنا عام أول فقال: «لا إن ذاك عام كان الناس فيه بجهد، فأردت أن يفشوا فيهم».

حديث جابر:

أخرجه البخاري (١٠/ ٢٦) كتاب الأضاحي: باب ما يؤكل من لحوم الأضاحي وما يتزود منها حديث (٥٥٦٧) ومسلم (٣/ ١٥٦٢) كتاب الأضاحي: باب بيان النهي عن أكل لحوم الأضاحي بعد ثلاث وبيان نسخه حديث (٣٠ ـ ٣١/ ١٩٧٢)، وأحمد (٣/ ٣١٧ ـ ٣٧٨)، والدارمي (٢/ ٨٠) كتاب الضحايا: باب في لحوم الأضاحي، والبيهقي (٩/ ٢٩١)، من طريق عطاء عن جابر قال: كنا لا نأكل من لحوم بدننا فوق ثلاث منى، فأرخص لنا رسول الله ـ ﷺ ـ أن نتزود منها ونأكل منها.

وفي رواية من هذا الوجه: كنا نتزود لحوم الهدي على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ إلى المدينة.

وأخرجه مالك (٢/ ٤٨٤) كتاب الضحايا: باب ادخار لحوم الأضاحي حديث(٦) ومن طريقه مسلم (٣/ ١٥٦٢) كتاب الأضاحي، باب: بيان النهي عن أكل لحوم الأضاحي بعد ثلاث وبيان نسخه (٢٩/ ١٩٧٢)، والنسائي (٧/ ٢٣٣) كتاب الأضاحي باب (٢٦)، وأحمد (٣/ ٣٨٨)، والبيهقي (٩/ ٢٩١) عن أبي الزبير عن جابر عن النبي ـ ﷺ ـ أنه: «نهى عن أكل لحوم الأضاحي بعد ثلاث»، ثم قال بعد: «كلوا وتزودوا وادخروا».

حديث ثوبان:

أخرجه مسلم (٣/ ١٥٦٣) كتاب الأضاحي: باب بيان النهي عن أكل لحوم الأضاحي بعد ثلاث وبيان نسخه حديث (٣٥/ ١٩٧٥)، وأحمد (٥/ ١٧٧)، وأبو داود (٢/) رقم (٢٨١٤) والنسائي في الكبرى (٢/ ٤٥٨)، والبيهقي (٩/ ٢٩١) من طريق معاوية بن صالح عن أبي الزاهرية عن جبير بن نفير عن ثوبان قال: ذبح رسول الله ـ ﷺ ـ ضحيته، ثم قال: يا ثوبان أصلح لحم هذه فلم =

قضاء التفث: قص الشارب والأظفار ونتف الإبط والاستحداد، والتفث: الوسخ، فالمراد: قضاء إزالة التفث، وقرئ: «وليوفوا»: بتشديد الفاء، ﴿نُذُورَهُمْ﴾: مواجب حجهم، أو ما عسى ينذرونه من أعمال البر في حجهم، ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا﴾: طواف الإفاضة، وهو طواف الزيارة الذي هو من أركان الحج، ويقع به تمام التحلل، وقيل: طواف الصدر، وهو طواف الوداع، ﴿الْعَتِيقِ﴾: القديم؛ لأنه أول بيت وضع للناس عن الحسن، وعن قتادة: أعتق من الجبابرة، كم من جبار سار إليه ليهدمه فمنعه الله، وعن مجاهد: لم يملك قط، وعنه: أعتق من الغرق، وقيل: بيت كريم، من قولهم: عتاق الخيل والطير.

فإن قلت: قد تسلط عليه الحجاج فلم يمنع. قلت: ما قصد التسلط على البيت؛ وإنما تحصن به ابن الزبير، فاحتال لإخراجه ثم بناه، ولما قصد التسلط عليه أبرهة، فعل به ما فعل.

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَٰنِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ

= أزل أطعمه منها حتى قدم المدينة.

وأخرجه مسلم (٣٦/ ١٩٧٥)، والدارمي (٢/ ٧٩) كتاب الأضاحي: باب في لحوم الأضاحي من طريق عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه عن ثوبان مولى رسول الله ـ ﷺ ـ قال: قال لي رسول الله ـ ﷺ ـ في حجة الوداع: «أصلح هذا اللحم» فلم يزل يأكل منه حتى بلغ المدينة.

حديث بريدة:

أخرجه مسلم (٣/ ١٥٦٣ ـ ١٥٦٤) كتاب الأضاحي: باب بيان النهي عن أكل لحوم الأضاحي بعد ثلاث وبيان نسخه (٣٧/ ١٩٧٧)، والنسائي (٧/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥) كتاب الأضاحي: باب (٢٦)، والترمذي (٤/ ٧٩)، كتاب الأضاحي: باب ما جاء في الرخصة في أكلها بعد ثلاث حديث (١٥١٠) من طريق ابن بريدة عن أبيه، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «كنت نهيتكم عن لحوم الأضاحي فوق ثلاث ليتسع ذوو الطول على من لا طول له، فكلوا ما بدا لكم وأطعموا وادخروا».

وقال الترمذي: حسن صحيح.

قال الحافظ: أخرجه مسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وأحمد، وإسحاق من رواية خالد الحذاء عن أبي المليح عن عتبة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنا كنا نهيناكم عن لحوم الأضاحي ألا تأكلوها فوق ثلاث لكي يسعكم، وقد جاء الله بالسعة فكلوا وادخروا وائتجروا: لفظ أبي داود.

وليس عند مسلم والنسائي وابن ماجه: «وائتجروا»، والنسائي في رواية: «وتصدقوا»، وله شاهد عن أبي سعيد الخدري عن أحمد.

فائدة: قال في النهاية: ائتجروا، أي تصدقوا طالبين للأجر، وليس هو اتجر بالإدغام من التجارة وأجاز الهروي الإدغام، واستدل عليه بقوله: «من يتجر مع هذا فيصلي معه، ولا دلالة فيه، لأنه يحتمل أن يكون من التجارة. انتهى.

لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ
ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾: خبر مبتدأ محذوف، أي: الأمر والشأن ذلك، كما يقدّم الكاتب جملة من كتابه في بعض المعاني، ثم إذا أراد الخوض في معنى آخر قال: هذا وقد كان كذا، والحرمة: ما لا يحل هتكه، وجميع ما كلفه الله ـ تعالى ـ بهذه الصفة من مناسك الحج وغيرها، فيحتمل أن يكون عامًّا في جميع تكاليفه، ويحتمل أن يكون خاصًّا فيما يتعلق بالحج، وعن زيد بن أسلم: الحرمات خمس الكعبة الحرام، والمسجد الحرام، والبلد الحرام، والشهر الحرام، والمحرم حتى يحل، ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾: أي: فالتعظيم خير له، ومعنى التعظيم: العلم بأنها واجبة المراعاة والحفظ والقيام بمراعاتها، المتلوّ لا يستثنى من الأنعام، ولكن المعنى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾: آية تحريمه؛ وذلك قوله في سورة المائدة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ﴾، والمعنى: أنّ الله قد أحل لكم الأنعام كلها إلا ما استثناه في كتابه، فحافظوا على حدوده، وإياكم أن تحرموا ما أحل شيئاً، كتحريم عبدة الأوثان البحيرة والسائبة وغير ذلك، وأن تحلوا مما حرم الله، كإحلالهم أكل الموقوذة والميتة وغير ذلك.

لما حث على تعظيم حرماته وأحمد من يعظمها[1]، أتبعه الأمر باجتناب الأوثان وقول الزور؛ لأن توحيد الله ونفي الشركاء عنه وصدق القول، أعظم الحرمات وأسبقها خطوا، وجمع الشرك وقول الزور في قران واحد، وذلك أنّ الشرك من باب الزور؛ لأن المشرك زاعم أنّ الوثن تحق له العبادة، فكأنه قال: فاجتنبوا عبادة الأوثان التي هي رأس الزور، واجتنبوا قول الزور كله لا تقربوا شيئاً منه؛ لتماديه في القبح والسماجة، وما ظنك بشيء من قبيله عبادة الأوثان، وسمى الأوثان رجساً، وكذلك الخمر والميسر والأَزلام، على طريق التشبيه، يعني: أنكم كما تنفرون بطباعكم عن الرجس وتجتنبونه، فعليكم أن تنفروا عن هذه الأشياء مثل تلك النفرة، ونبه على هذا المعنى بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ [المائدة: ٩٠]، جعل العلة في اجتنابه أنه رجس، والرجس مجتنب، ﴿مِنَ﴾: بيان للرجس وتمييز له؛ كقولك: عندي عشرون من الدراهم؛ لأنّ الرجس مبهم يتناول غير شيء، كأنه قيل: فاجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان، والزور من الزور والازورار وهو الانحراف، كما أنّ الإفك من أفكه: إذا صرفه، وقيل: (قول الزور): قولهم: هذا حلال وهذا حرام، وما أشبه ذلك من افترائهم، وقيل: شهادة الزور، عن

[1] قوله «وأحمد من يعظمها» في الصحاح «أحمدته»: وجدته محموداً موافقاً مرضيا. (ع)

النبي ـ ﷺ ـ أنه صلى الصبح، فلما سلم قام قائماً واستقبل الناس بوجهه، وقال: «عَدَلَتْ شَهَادَةُ الزُّورِ الإِشْرَاكَ بِاللَّهِ، عَدَلَتْ شَهَادَةُ الزُّورِ الإِشْرَاكَ بِاللَّهِ، عَدَلَتْ شَهَادَةُ الزُّورِ الإِشْرَاكَ بِاللَّهِ» ٩٨٢ح، وتلا هذه الآية، وقيل: الكذب والبهتان، وقيل: قول أهل الجاهلية في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك، يجوز في هذا التشبيه أن يكون من المركب والمفرق، فإن كان تشبيهاً مركباً فكأنه قال: من أشرك بالله، فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس بعده نهاية، بأن صور حاله بصورة حال من خرّ من السماء فاختطفته الطير، فتفرق مزعاً[1] في حواصلها، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطاوح[2] البعيدة، وإن كان مفرقاً فقد شبه الإيمان في علوه بالسماء، والذي ترك الإيمان وأشرك بالله بالساقط من السماء، والأهواء التي تتوزع أفكاره بالطير المختطفة، والشيطان الذي يطوّح به في وادي الضلالة بالريح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة[3]، وقرئ: «فتخطفه»: بكسر الخاء والطاء، وبكسر التاء مع كسرهما؛

---

٩٨٢ ـ روي من حديث خريم بن فاتك. رواه أبو داود (٢/ ٣٢٩) كتاب الأقضية، باب في شهادة الزور حديث (٣٥٩٩) حدثنا يحيى بن موسى البلخي ثنا محمد بن عبيد حدثني سفيان ـ يعني العصفري ـ عن أبيه عن حبيب بن النعمان الأسدي عن خريم بن فاتك قال: صلى رسول الله ـ ﷺ ـ صلاة الصبح، فلما انصرف قام قائماً فقال: «عدلت شهادة الزول بالإشراك بالله» ثلاث مرار، ثم قرأ: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾.

ورواه الترمذي (٤/ ٥٤٧) كتاب الشهادات، باب ما جاء في شهادة الزور حديث (٢٣٠٠)، وابن ماجه (٢/ ٧٩٤) كتاب الأحكام، باب شهادة الزور (٢٣٧٢)، وأحمد في المسند (٤/ ٣٢١ ـ ٣٢٢)، والطبراني في الكبير (٤/ ٢٠٩) رقم (٤١٦٢)، والبيهقي في الشعب (٤/ ٢٢٣) رقم (٤٨٦١)، والطبري في التفسير (٩/ ١٤٤) رقم (٢٥١٣٦)، وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢/ ٣٨٣) لابن أبي شيبة وإسحاق بن راهويه في مسنديهما.

ثم قال: «وعزاه المنذري في مختصره للترمذي ولم أجده ولا عزاه ابن عساكر في الأطراف إليه، بل عزاه لأبي داود وابن ماجه فقط» اهـ.

قلت: لم تفرد الحافظ في التلخيص للترمذي أيضاً، بل عزاه لأبي داود وابن ماجه وأحمد فقط، ومع ذلك فالحديث رواه الترمذي كما سبق رقم (٢٣٠٠) كتاب الشهادات، باب شهادة الزور قال: حدثنا عبد بن حميد حدثنا محمد بن عبيد حدثنا سفيان وهو ابن زياد العصفري عن أبيه عن حبيب بن النعمان الأسدي عن خريم بن فاتك الأسدي به مرفوعاً. =

---

(١) قوله «مزعا» مفرده «مزعة» بالضم. أي: قطعة لحم كما في الصحاح. (ع)

(٢) قوله «والمطاوح» أي المقاذف. وطاح يطوح ويطيح: هلك وسقط. وطوحته الطوائح: قذفته القواذف، كذا في الصحاح أيضاً. (ع)

(٣) قال محمود: «ويجوز في هذا التشبيه أن يكون مركباً ومفرقاً، فإن كان مركباً فكأنه قال: من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس بعده نهاية، بأن صور حاله بصورة من خر من السماء فاختطفته =

وهي قراءة الحسن، وأصلها ٢/٢٩ب تختطفه، وقرئ: «الرياح».

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى

= والحديث رواه الترمذي (٤/ ٥٤٧)، كتاب الشهادات، باب شهادة الزور حديث (٢٢٩٩).
وابن جرير الطبري (٩/ ١٤٤ ـ ١٤٥) رقم (٢٥١٣٧) عن أيمن بن خريم أن النبي ـ ﷺ ـ قام خطيباً... فذكر الحديث.
قال الترمذي: «وهذا حديث غريب إنما نعرفه من حديث سفيان بن زياد، واختلفوا في رواية الحديث عن سفيان بن زياد ولا نعرف لأيمن بن خريم سماعاً من النبي ـ ﷺ ـ وقد اختلفوا في رواية هذا الحديث عن سفيان بن زياد».
قال الحافظ: أخرجه أبو داود، وأحمد، وإسحاق، وابن أبي شيبة من رواية سفيان بن زياد العصفري عن أبيه عن حبيب بن النعمان عن خريم بن فاتك. وأخرجه الترمذي من رواية العصفري عن فاتك بن فضالة عن أنس بن خريم كذا قال. انتهى.

= الطير فصيرته مزعا في حواصلها، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطاوح البعيدة، وإن كان مفرقاً فقد شبه الإيمان في علوه بالسماء «والذي ترك الإيمان وأشرك بالله بالساقط من السماء، وشبه الأهواء التي تتوزع أفكاره بالطير المختطفة، والشيطان الذي يطوح به في وادي الضلالة بالريح تهوي بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة» قال أحمد: أما على تقدير أن يكون مفرقاً، فيحتاج تأويل تشبيه المشرك بالهاوي من السماء إلى التنبيه على أحد أمرين: إما أن يكون الإشراك المراد ردته، فإنه حينئذٍ كمن علا إلى السماء بإيمانه ثم هبط بارتداده. وإما أن يكون الإشراك أصلياً، فيكون قد عد تمكن المشرك من الإيمان ومن العلو به ثم عدوله عنه اختياراً، بمنزلة من علا إلى السماء ثم هبط كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ فعدهم مخرجين من النور وما دخلوه قط، ولكن كانوا متمكنين منه. وقد مضى تقرير هذا المعنى بأبسط من هذا. وفي تقريره تشبيه الأفكار المتوزعة للكافر بالطير المختطفة، وفي تشبيه تطويح الشيطان بالهوى مع الريح في مكان سحيق: نظر؛ لأن الأمرين ذكرا في سياق تقسيم حال الكافر إلى قسمين، فإذا جعل الأول مثلاً لاختلاف الأهواء والأفكار. والثاني مثلا لنزغ الشيطان: فقد جعلهما شيئاً واحداً، لأن توزع الأفكار واختلاف الأهواء، مضاف إلى نزغ الشيطان، فلا يتحقق التقسيم المقصود. والذي يظهر في تقرير التشبيهين غير ذلك، فنقول: لما انقسمت حال الكافر إلى قسمين لا مزيد عليهما، الأول منهما: المتذبذب والمتمادي على الشك وعدم التصميم على ضلالة واحدة، فهذا القسم من المشركين مشبه من اختطفته الطير وتوزعته فلا يستولي طائر على مزعة منه إلا انتهبها منه آخر، وذلك حال المذبذب لا يلوح له خيال إلا اتبعه ونزل عما كان عليه. والثاني مشرك مصمم على معتقد باطل، لو نشر بالمناشير لم يكع ولم يرجع لا سبيل إلى تشكيكه ولا مطمع في نقله عما هو عليه، فهو فرح مبتهج لضلالته، فهذا مشبه في إقراره على كفره باستقرار من هوت به الريح إلى واد سافر فاستقر فيه. ونظير تشبيهه بالاستقرار في الوادي السحيق الذي هو أبعد الأخباء عن السماء: وصف ضلاله بالبعد في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ «وَضَلُّوا ضَلالاً بَعِيدًا» أي صمموا على ضلالهم فبعد رجوعهم إلى الحق، فهذا تحقيق القسمين، والله أعلم.

﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾

تعظيم الشعائر ـ وهي الهدايا؛ لأنها من معالم الحج ـ: أن يختارها عظام الأجرام حساناً سماتاً غالية الأثمان، ويترك المكاس في شرائها، فقد كانوا يغالون في ثلاث ـ ويكرهون المكاس فيهنّ ـ: الهدي، والأضحية، والرقبة، وروى ابن عمر عن أبيه ـ رضي الله عنهما ـ أنه أهدى نجيبة طلبت منه بثلاثمائة دينار، فسأل رسول الله ـ ﷺ ـ أن يبيعها ويشتري بثمنها بدناً، فنهاه عن ذلك، وقال: «بَلْ أَهْدِهَا» (٩٨٣)، وأهدى رسول الله ـ ﷺ ـ مائة بدنة، فيها جمل لأبي جهل في أنفه برّة من ذهب (٩٨٤)، وكان ابن عمر يسوق البدن مجللة بالقباطي[1]، فيتصدّق بلحومها وبجلالها (٩٨٥)، ويعتقد أن طاعة الله في التقرّب بها وإهدائها إلى بيته المعظم أمر عظيم لا بدّ أن يقام به ويسارع فيه، ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ أي: فإن تعظيمها من أفعال ذوي تقوى القلوب، فحذفت هذه

---

٩٨٣ ـ قال الحافظ: تقدم الكلام عليه في أثناء سورة البقرة. انتهى.

٩٨٤ ـ أخرجه البخاري (٣/ ٥٥٧)، كتاب الحج: باب يتصدق بجلال البدن، حديث (١٧١٨)، من حديث علي قال: «أهدى النبي ـ ﷺ ـ مائة بدنة فأمرني بلحومها فقسمتها ثم أمرني بجلالها فقسمتها ثم بجلودها فقسمتها».

وهو في صحيح مسلم (٢/ ٩٥٤): كتاب الحج، باب في الصدقة بلحومها الهدي وجلودها وجلالها، حديث (٣٤٨/ ١٣٦٧)، دون ذكر العدد.

وأخرجه أيضاً أبو داود (١٧٦٩)، وابن ماجه (٣٠٩٩)، والدارمي (١/ ٣٩٩)، وابن الجارود (٤٨٢)، وابن خزيمة (٤/ ٢٩٥)، والبيهقي (٩/ ٢٩٤)، من طريق مجاهد، عن ابن أبي ليلى، عن علي به.

قال الحافظ: أخرجه إسحاق والبزار من حديث علي، وفي الباب عن جابر قال: كان جميع ما جاء به مائة بدنة فيها جمل في أنفه برة من فضة أخرجه الحاكم والطبراني من رواية زيد بن الحباب عن الثوري عن جعفر بن محمد عن أبيه عنه قال البخاري: هذا خطأ من زيد. وإنما هو عن الثوري عن أبي إسحاق عن مجاهد مرسلاً. وقد جاء عن مجاهد عن ابن عباس قال: «أهدى رسول الله ـ ﷺ ـ في هداياه جملا كان لأبي جهل في رأسه برة من ذهب، ليغيظ به المشركين» أخرجه أبو داود والحاكم وأبو يعلى والطبراني. انتهى.

٩٨٥ ـ أخرجه مالك في الموطأ (١/ ٣٧٩) كتاب الحج، باب العمل في الهدي حين يساق حديث (١٤٦).

وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢/ ٣٨٦)، لابن أبي شيبة في المصنف، وأبي الوليد الأزرقي في تاريخ مكة.

قال الحافظ: أخرجه مالك في الموطأ عن نافع عنه بهذا وأتم منه ـ ورواه ابن أبي شيبة من طريق فليح عن نافع نحوه. انتهى.

---

(١) قوله «مجللة بالقباطي» في الصحاح: القبط أهل مصر. والقبطية: ثياب بيض رقاق من كتان تتخذ بمصر والجمع قباطي. (ع)

المضافات، ولا يستقيم المعنى إلا بتقديرها؛ لانه لا بد من راجع من الجزاء إلى: (من)؛ ليرتبط به؛ وإنما ذكرت القلوب لأنها مراكز التقوى التي إذا ثبتت فيها وتمكنت، ظهر أثرها في سائر الأعضاء، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾: إلى أن تنحر ويتصدق بلحومها ويؤكل منها، و﴿ثُمَّ﴾: للتراخي في الوقت، فاستعيرت للتراخي في الأحوال، والمعنى: أن لكم في الهدايا منافع كثيرة في دنياكم ودينكم؛ وإنما يعتدّ الله بالمنافع الدينية؛ قال سبحانه: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ﴾ [الأنفال: ٦٧]، وأعظم هذه المنافع وأبعدها شوطاً في النفع: ﴿مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ﴾، أي: وجوب نحرها، أو وقت وجوب نحرها في الحرم منتهية إلى البيت؛ كقوله: ﴿هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥]، والمراد: نحرها في الحرم الذي هو في حكم البيت؛ لأن الحرم هو حريم البيت؛ ومثل هذا في الاتساع قولك: بلغنا البلد، وإنما شارفتموه واتصل مسيركم بحدوده، وقيل: المراد بالشعائر: المناسك كلها، و(محلها إلى البيت العتيق): يأباه.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٥﴾

شرع الله لكل أمة أن ينسكوا له، أي: يذبحوا لوجهه على وجه التقرّب، وجعل العلة في ذلك أن يذكر اسمه تقدست أسماؤه على النسائك، وقرئ: (منسكا): بفتح السين وكسرها، وهو مصدر بمعنى: النسك، والمكسور يكون بمعنى: الموضع، ﴿فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ﴾ أي: أخلصوا له الذكر خاصة، واجعلوه لوجهه سالما، أي: خالصاً لا تشوبوه بإشراك.

المخبتون: المتواضعون الخاشعون، من الخبت وهو المطمئن من الأرض، وقيل: هم الذين لا يظلمون، وإذا ظلموا لم ينتصروا، وقرأ الحسن: (والمقيمي الصلاة): بالنصب على تقدير النون، وقرأ ابن مسعود: «والمقيمين الصلاة»: على الأصل.

﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٣٦﴾

﴿وَٱلۡبُدۡنَ﴾: جمع بدنة؛ سميت لعظم بدنها وهي الإبل خاصة، ولأن رسول الله ـ ﷺ ـ ألحق البقر بالإبل حين قال: «الْبَدَنَةُ عَنْ سَبْعَةٍ، وَالْبَقَرَةُ عَنْ سَبْعَةٍ» (٩٨٦)، فجعل البقر في حكم الإبل، صارت البدنة في الشرعية متناولة للجنسين

---

٩٨٦ ـ أخرجه مالك (٢/ ٤٨٦) كتاب الضحايا ـ باب الشركة في الضحايا حديث (٩)، وأحمد (٣/ ٣٥٣ =

عند أبي حنيفة وأصحابه، وإلا فالبدن هي الإبل وعليه تدل الآية، وقرأ الحسن: «والبُدُن»:

= ـ ٣٦٣) ومسلم (٢/ ٩٥٥) كتاب الحج ـ باب الإشراك في الهدي ـ حديث (١٣١٨/٣٥٠). وأبو داود (٣/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠) كتاب الضحايا ـ باب في البقر والجزور عن كم تجزىء حديث (٢٨٠٩)، والترمذي (٤/ ٨٩) كتاب الأضاحي باب ما جاء في الاشتراك في الأضحية حديث (١٥٠٢)، وابن ماجه (٢/ ١٠٤٧) كتاب الأضاحي ـ باب عن كم تجزىء البدنة والبقرة حديث (٣١٣٢)، والبيهقي (٩/ ٢٩٤) كتاب الضحايا ـ باب الاشتراك في الهدي والأضحية.

من طريق أبي الزبير عن جابر بن عبد الله قال: نحرنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ عام الحديبية البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة.

وأخرجه مسلم (٢/ ٩٥٥) كتاب الحج: باب الاشتراك في الهدي... حديث (١٣١٨/٣٥٣) وأحمد (٣/ ٣٧٨) وابن الجارود (٤٧٩) وابن خزيمة (٤/ ٢٨٧ ـ ٢٨٨) رقم (٢٩٠٠) والبيهقي (٩/ ٢٩٥) كتاب الضحايا: باب الاشتراك في الهدي والأضحية من طريق ابن جريج عن أبي الزبير عن جابر قال: «اشتركنا مع النبي ـ ﷺ ـ في الحج والعمرة، كل سبعة في بدنة، فقال رجل لجابر: يشترك في البدنة ما يشترك في الجزور قال: ما هي إلا من البدن».

وأخرجه ابن خزيمة (٤/ ٢٨٨) رقم (٢٩٠١) من طريق عمرو بن الحارث ومالك بن أنس عن أبي الزبير عن جابر به.

وأخرجه مسلم (٢/ ٩٥٥) كتاب الحج: باب الاشتراك في الهدي ـ حديث (١٣١٨/٣٥٢) من طريق عزرة بن ثابت عن أبي الزبير عن جابر وأحرجه أيضاً (١٣١٨/٣٥١) من طريق زهير بن معاوية عن أبي الزبير عن جابر ورواه من هذا الطريق أيضاً أحمد (٣/ ٢٩٢) والبيهقي (٥/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦)، وقد توبع أبو الزبير على هذا الحديث تابعه عطاء بن أبي رباح وأبو سفيان والشعبي وسليمان بن قيس.

متابعة عطاء:

أخرجها مسلم (٢/ ٩٥٦) كتاب الحج: باب الاشتراك في الهدي، حديث (١٣١٨/٣٥٥)، وأبو داود (٢/ ١٠٨) كتاب الضحايا: باب في البقر والجزور حديث (٢٨٠٧)، والنسائي (٧/ ٢٢٢) كتاب الضحايا: باب ما تجزىء عنه البقرة في الضحايا، وأحمد (٣/ ٢٦٣)، والدارقطني (٢/ ٤٧) العيدين، وابن خزيمة (٤/ ٢٨٨) رقم (٢٩٠٢). وأبو يعلى (٤/ ٣١) رقم (٢٠٣٤)، والبيهقي (٩/ ٢٩٥) من طريق هشيم عن عبد الملك عن عطاء عن جابر قال: «كنا نتمتع مع رسول الله ـ ﷺ ـ بالعمرة فنذبح البقرة عن سبعة نشترك فيها».

متابعة أبي سفيان:

أخرجها أحمد (٣/ ٣١٦) من طريق الأعمش عن أبي سفيان عن جابر به.

متابعة عامر الشعبي:

أخرجه أحمد (٣/ ٣٣٥) والدارقطني (٢/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤) من طريق مجالد بن سعيد عن الشعبي عن جابر به. ومجالد بن سعيد فيه ضعف.

متابعة سليمان بن قيس:

أخرجها أحمد (٣/ ٣٥٣ ـ ٣٦٤) والطيالسي (١/ ٢٢٩ ـ منحة) رقم (١١٠٣) من طريق أبي عوانة حدثنا أبو بشر عن سليمان بن قيس عن جابر به.

قال الحافظ: لم أره مرفوعاً من لفظه. نعم أخرجه أبو داود بلفظ: «الجزور عن سبعة»، وأخرجه مسلم وأصحاب السنن من رواية مالك عن أبي الزبير عن جابر قال: «نحرنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة» وفي الباب عن ابن مسعود عند الطبراني. انتهى.

بضمتين، كثمر في جمع ثمرة، وابن أبي إسحاق بالضمتين وتشديد النون على لفظ الوقف، وقرئ بالنصب والرفع؛ كقوله: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ﴾ [يس: ٣٩]، ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ أي: من أعلام الشريعة التي شرعها الله، وإضافتها إلى اسمه؛ تعظيم لها، ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾؛ كقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ [الحج: ٣٣]، ومن شأن الحاج أن يحرص على شيء فيه خير ومنافع بشهادة الله، عن بعض السلف أنه لم يملك إلا تسعة دنانير، فاشترى بها بدنة، فقيل له في ذلك، فقال: سمعت ربي يقول: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ [الحج: ٣٦]، وعن ابن عباس: دنيا وآخرة، وعن إبراهيم: من احتاج إلى ظهرها ركب، ومن احتاج إلى لبنها شرب، وذكر اسم الله: أن يقول عند النحر: الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، اللهم، منك وإليك، ﴿صَوَآفَّ﴾: قائمات، قد صففن أيديهنّ وأرجلهنّ، وقرئ: «صوافن»: من صفون الفرس، وهو: أن يقوم على ثلاث وينصب الرابعة على طرف سنبكه؛ لأن البدنة تعقل إحدى يديها تقوم على ثلاث، وقرئ: «صوافي»، أي: خوالص لوجه الله، وعن عمرو بن عبيد: «صوافناً»: بالتنوين عوضاً من حرف الإطلاق عند الوقف، وعن بعضهم: صواف[1]؛ نحو مثل العرب، أعط القوس باريها، بسكون الياء.

وجوب الجنوب: وقوعها على الأرض، من وجب الحائط وجبة إذا سقط، ووجبت الشمس جبة: غربت، والمعنى: فإذا وجبت جنوبها وسكنت نسائسها[2] حل لكم الأكل منها والإطعام، ﴿ٱلْقَانِعَ﴾: السائل، من قنعت إليه وكنعت: إذا خضعت له وسألته قنوعاً ﴿وَٱلْمُعْتَرَّ﴾: المعترض بغير سؤال، أو القانع الراضي بما عنده وبما يعطى من غير سؤال، من قنعت قنعاً وقناعة، والمعتر: المعترض بسؤال، وقرأ الحسن: والمعتري، وعرّه وعراه واعتراه واعتره: بمعنى، وقرأ أبو رجاء: «القنع»، وهو الراضي لا غير، يقال: قنع فهو قنع وقانع.

مَنَّ الله على عباده واستحمد إليهم بأن سخر لهم البدن مثل التسخير الذي رأوا وعلموا، يأخذونها منقادة للأخذ طيعة فيعقلونها ويحبسونها صافة قوائمها، ثم يطعنون في لبانها، ولولا تسخير الله لم تطق، ولم نكن بأعجز من بعض الوحوش التي هي أصغر منها جرماً وأقل ٢/ ٣٠أ قوّة، وكفى بما يتأبد من الإبل شاهداً وعبرة.

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟

---

(١) قوله «صواف» لعله: صوافي، بالسكون. (ع)

(٢) قوله «وسكنت نسائسها» في الصحاح «النسيسة، والنسيس» الإيكال بين الناس، والنسائس: النمائم. والنسيس: بقية الروح. وفيه أيضاً «الإيكال بين الناس» السعي بينهم. (ع)

﴿ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾

أي: لن يصيب رضا الله اللحوم المتصدق بها ولا الدماء المهراقة بالنحر، والمراد أصحاب اللحوم والدماء، والمعنى: لن يرضي المضحون والمقرّبون ربهم إلا بمراعاة النية والإخلاص والاحتفاظ بشروط التقوى في حل ما قرب به، وغير ذلك من المحافظات الشرعية وأوامر الورع، فإذا لم يراعوا ذلك، لم تغن عنهم التضحية والتقريب وإن كثر ذلك منهم، وقرئ: «لن تنال الله»، ولكن تناله: بالتاء والياء، وقيل: كان أهل الجاهلية إذا نحروا البدن نضحوا الدماء حول البيت ولطخوه بالدم، فلما حج المسلمون أرادوا مثل ذلك؛ فنزلت.

كرّر تذكير النعمة بالتسخير ثم قال: لتشكروا الله على هدايته إياكم لأعلام دينه ومناسك حجه، بأن تكبروا وتهللوا، فاختصر الكلام بأن ضمن التكبير معنى الشكر، وعدى تعديته.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾

خص المؤمنين بدفعه عنهم ونصرته لهم؛ كما قال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٥١]، وقال: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الصافات: ١٧٢]، وقال: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الجمعة: ١٣]، وجعل العلة في ذلك أنه لا يحب أضدادهم: وهم الخونة الكفرة الذين يخونون الله والرسول ويخونون أماناتهم ويكفرون نعم الله ويغمطونها[1]، ومن قرأ: (يدافع)، فمعناه: يبالغ في الدفع عنهم، كما يبالغ من يغالب فيه؛ لأن فعل المغالب يجيء أقوى وأبلغ.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾

﴿وَأَذِنَ﴾، و﴿يُقَٰتَلُونَ﴾: قرئا على لفظ المبني للفاعل والمفعول جميعاً، والمعنى:

---

(١) قوله «ويغمطونها» أي: يحقرونها. (ع)

إذن لهم في القتال، فحذف المأذون فيه؛ لدلالة يقاتلون عليه، ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ أي: بسبب كونهم مظلومين وهم أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ: كان مشركو مكة يؤذونهم أذى شديداً، وكانوا يأتون رسول الله ـ ﷺ ـ: من بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه، فيقول لهم: «اصْبِرُوا؛ فَإِنِّي لَمْ أُومَرْ بِالْقِتَالِ» ح حَتَّى هاجر؛ فأنزلت هذه الآية (٩٨٧)، وهي أول آية أذن فيها بالقتال بعد ما نهى عنه في نيف وسبعين آية، وقيل: نزلت في قوم خرجوا مهاجرين فاعترضهم مشركو مكة فأذن لهم في مقاتلتهم، والأخبار بكونه قادرا على نصرهم عدة منه بالنصر واردة على سنن كلام الجبابرة، وما مرّ من دفعه عن الذين آمنوا مؤذن بمثل هذه العدة، أيضاً، ﴿أَن يَقُولُوا﴾: في محل الجرّ على الإبدال من (حق) أي: بغير موجب سوى التوحيد الذي ينبغي أن يكون موجب الإقرار والتمكين لا موجب الإخراج والتسيير، ومثله: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ [المائدة: ٥٩].

دفع الله بعض الناس ببعض: إظهاره وتسليطه المسلمين منهم على الكافرين بالمجاهدة، ولولا ذلك لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة في أزمنتهم، وعلى متعبداتهم فهدموها، ولم يتركوا للنصارى بيعاً، ولا لرهبانهم صوامع، ولا لليهود صلوات، ولا للمسلمين مساجد، أو لغلب المشركون من أمّة محمد ـ ﷺ ـ على المسلمين وعلى أهل الكتاب الذين في ذمتهم وهدموا متعبدات الفريقين، وقرئ: «دفاع»، و«لهدمت»: بالتخفيف، وسميت الكنيسة «صلاة»، لأنه يصلى فيها، وقيل: هي كلمة معرّبة، أصلها بالعبرانية: صلوثا، ﴿مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ أي: ينصر دينه وأولياءه: هو إخبار من الله ـ عز وجل ـ بظهر الغيب عما ستكون عليه سيرة المهاجرين ـ رضي الله عنهم ـ إن مكنهم

---

٩٨٧ ـ قال الحافظ لم أجده هكذا. وقال الزيلعي (١/ ٣٨٨): «غريب جداً، وعزاه الواحدي في الوسيط للمفسرين».

قال الواحدي (٣/ ٢٧٣): «قال المفسرون كان مشركو أهل مكة يؤذون أصحاب النبي ـ ﷺ ـ فلا يزالون يجيئون من بين مضروب ومشجوب، ويشكون ذلك فيقول لهم النبي ـ ﷺ ـ «اصبروا فإني لم أومر بالقتال حتى هاجروا» فأنزل الله هذه الآية اهـ.

قال الحافظ: لم أجده هكذا. وعزاه الواحدي في الوسيط للمفسرين. قلت: هو منتزع من أحاديث: أقربها ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق بكير بن معروف عن مقاتل بن حيان قوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾، وذلك أن مشركي أهل مكة كانوا يؤذون المسلمين بمكة، فاستأذنوا النبي ـ ﷺ ـ في قتالهم بمكة. فنهاهم النبي ـ ﷺ ـ عن ذلك فلما خرج النبي ـ ﷺ ـ إلى المدينة أنزل الله عليه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾، وذكر الطبري أن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ استأذنوا رسول الله ـ ﷺ ـ في قتال الكفار إذا رأوهم وسطوا عليهم بمكة قبل الهجرة غيلة وعسرا: فأنزل الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾، فلما هاجروهم أحلوهم مالهم وقتالهم فقال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ﴾ الآية. انتهى.

في الأرض وبسط لهم في الدنيا، وكيف يقومون بأمر الدين، وعن عثمان ـ رضي الله عنه ـ: هذا والله ثناء قبل بلاء، يريد: أنّ الله قد أثنى عليهم قبل أن يحدثوا من الخير ما أحدثوا، وقالوا: فيه دليل على صحة أمر الخلفاء الراشدين؛ لأنّ الله لم يعط التمكين ونفاذ الأمر مع السيرة العادلة غيرهم من المهاجرين، لاحظ في ذلك للأنصار والطلقاء، وعن الحسن: هم أمة محمد ـ ﷺ ـ وقيل: ﴿ٱلَّذِينَ﴾: منصوب بدل من قول من ينصره، والظاهر أنه مجرور، تابع للذين أخرجوا، ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: مرجعها إلى حكمه وتقديره، وفيه تأكيد لما وعده من إظهار أوليائه وإعلاء كلمتهم.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾

يقول لرسوله ـ ﷺ ـ تسلية له: لست بأوحدى في التكذيب؛ فقد كذب الرسل قبلك أقوامهم، وكفاك بهم أسوة.

فإن قلت: لم قيل: ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾، ولم يقل: وقوم موسى؟

قلت: لأنّ موسى ما كذبه قومه بنو إسرائيل؛ وإنما كذبه غير قومه وهم القبط، وفيه شيء آخر، كأنه قيل بعد ما ذكر تكذيب كل قوم رسولهم، وكذب موسى ـ أيضاً ـ مع وضوح آياته[1]، وعظم معجزاته، فما ظنك بغيره؟

النكير: بمعنى الإنكار والتغيير، حيث أبدلهم بالنعمة محنة، وبالحياة هلاكاً، وبالعمارة خراباً.

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾

كل مرتفع أظلك من سقف بيت أو خيمة أو ظلة أو كرم، فهو «عرش»، والخاوي:

---

(١) قال محمود: فإن قلت: لم قيل وكذب موسى ولم يقل وقوم موسى بدون تكرير التكذيب؟ قلت: لأن قوم موسى هم بنو إسرائيل ولم يكذبوه، وإنما كذبه القبط. أو لأن آيات موسى كانت باهرة ظاهرة فكأنه قال: وكذب موسى أيضاً على ظهور آياته، قال أحمد: ويحتمل عندي ـ والله أعلم ـ أنه لما صدر الكلام بحكاية تكذيبهم ثم عدد أصناف المكذبين وطوائفهم ولم ينته إلى موسى إلا بعد طول الكلام، حسن تكريره ليلي قوله: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ فيتصل المسبب بالسبب، كما قال في آية ق بعد تعديدهم ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ فربط العقاب والوعيد ووصلهما بالتكذيب، بعد أن جدد ذكره، والله أعلم.

الساقط، ٢/ ٣٠ب من خوى النجم إذا سقط، أو الخالي: من خوى المنزل: إذا خلا من أهله، وخوى بطن الحامل، وقوله: ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾: لا يخلو من أن يتعلق بخاوية، فيكون المعنى أنها ساقطة على سقوفها، أي: خرّت سقوفها على الأرض، ثم تهدّمت حيطانها فسقطت فوق السقوف، أو أنها ساقطة أو خالية مع بقاء عروشها وسلامتها، وإما أن يكون خبراً بعد خبر، كأنه قيل: هي خالية، وهي على عروشها، أي: قائمة مطلة على عروشها، على معنى: أنّ السقوف سقطت إلى الأرض فصارت في قرار الحيطان وبقيت الحيطان مائلة فهي مشرفة على السقوف الساقطة.

فإن قلت: ما محل الجملتين من الإعراب، أعني: (وهي ظالمة، فهي خاوية)؟

قلت: الأولى: في محل النصب على الحال، والثانية: لا محلّ لها؛ لأنها معطوفة على أهلكناها، وهذا الفعل ليس له محل، قرأ الحسن: «معطلة»: من أعطله، بمعنى: عطله، ومعنى المعطلة: أنها عامرة فيها الماء، ومعها آلات الاستقاء؛ إلا أنها عطلت، أي: تركت لا يستقى منها لهلاك أهلها، والمشيد: المجصص أو المرفوع البنيان، والمعنى: كم قرية أهلكنا؟ وكم بئر عطلنا عن سقاتها؟ وقصر مشيد أخليناه عن ساكنيه؟ فترك ذلك؛ لدلالة معطلة عليه، وفي هذا دليل على أنّ (على عروشها) بمعنى: «مع» أوجه، روي أنّ هذه بئر نزل عليها صالح ـ عليه السلام ـ مع أربعة آلاف نفر ممن آمن به، ونجاهم الله من العذاب، وهي بحضرموت؛ وإنما سميت بذلك لأنّ صالحاً حين حضرها مات، وثمة بلدة عند البئر اسمها: «حاضوراء» بناها قوم صالح، وأمّروا عليهم جلهس بن جلاس، وأقاموا بها زماناً ثم كفروا وعبدوا صنماً، وأرسل الله إليهم حنظلة بن صفوان نبيًّا فقتلوه، فأهلكهم الله، وعطل بئرهم، وخرّب قصورهم.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾

يحتمل أنهم لم يسافروا فحثوا على السفر؛ ليروا مصارع من أهلكهم الله بكفرهم، ويشاهدوا آثارهم فيعتبروا، وأن يكونوا قد سافروا ورأوا ذلك ولكن لم يعتبروا، فجعلوا كأن لم يسافروا ولم يروا، وقرئ: ﴿فيكون لهم قلوب﴾: بالياء، أي: يعقلون ما يجب أن يعقل من التوحيد، ويسمعون ما يجب سماعه من الوحي، ﴿فَإِنَّهَا﴾، الضمير: ضمير الشأن والقصة، يجيء مذكراً ومؤنثاً، وفي قراءة ابن مسعود: «فإنه»، ويجوز أن يكون ضميراً مبهما يفسره: ﴿ٱلْأَبْصَٰرُ﴾، وفي تعمى ضمير راجع إليه، والمعنى: أنّ أبصارهم صحيحة سالمة لا عمى بها؛ وإنما العمى بقلوبهم، أولا يعتدّ بعمى الأبصار، فكأنه ليس بعمى بالإضافة إلى عمى القلوب.

فإن قلت: أي فائدة في ذكر الصدور؟

قلت: الذي قد تعورف واعتقد أنّ العمى على الحقيقة مكانه البصر، وهو أن تصاب الحدقة بما يطمس نورها، واستعماله في القلب استعارة ومثل، فلما أريد إثبات ما هو خلاف المعتقد من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة ونفيه عن الأبصار، احتاج هذا التصوير إلى زيادة تعيين وفضل تعريف؛ ليتقرّر أنّ مكان العمى هو القلوب لا الأبصار، كما تقول: ليس المضاء للسيف، ولكنه للسانك الذي بين فكيك، فقولك: «الذي بين فكيك»: تقرير لما ادّعيته للسانه وتثبيت؛ لأنّ محلّ المضاء هو هو لا غير، وكأنك قلت: ما نفيت المضاء عن السيف وأثبته للسانك فلتة ولا سهواً مني، ولكن تعمدت به إياه بعينه تعمدا.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾

أنكر استعجالهم بالمتوعد به من العذاب العاجل أو الآجل، كأنه قال: ولم يستعجلون به؟ كأنهم يجوّزون الفوت؛ وإنما يجوز ذلك على ميعاد من يجوز عليه الخلف، والله ـ عز وعلا ـ لا يخلف الميعاد وما وعده ليصيبنهم ولو بعد حين، وهو سبحانه حليم لا يعجل، ومن حلمه ووقاره واستقصاره المدد الطوال أنّ يوماً واحداً عنده كألف سنة[1] عندكم، وقيل: معناه كيف يستعجلون بعذاب مَن يومٌ واحد من أيام عذابه في طول ألف سنة من سنيكم؛ لأنّ أيام الشدائد مستطالة، أو كأن ذلك اليوم الواحد لشدّة عذابه كألف سنة من سني العذاب، وقيل: ولن يخلف الله وعده في النظرة والإمهال، وقرئ: «تعدون»: بالتاء والياء، ثم قال: وكم من أهل قرية كانوا مثلكم ظالمين قد أنظرتهم حيناً ثم أخذتهم بالعذاب والمرجع إليّ وإلى حكمي.

فإن قلت: لم كانت الأولى معطوفة بالفاء، وهذه بالواو؟

قلت: الأولى وقعت بدلاً من قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾، وأمّا هذه فحكمها حكم ما تقدّمها من الجملتين المعطوفتين بالواو، أعني قوله: ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ﴾.

---

(١) قال محمود: «فيه إيذان بحلم الله تعالى ووقاره واستقصاره الأمد الطويل حتى إن يوماً واحداً عنده كألف سنة» قال أحمد: الوقار المقرون بالحلم يفهم لغة: السكون وطمأنينة الأعضاء عند المزعجات والأناة والتؤدة، ونحو ذلك مما لا يطلق على الله تعالى إلا بتوقيف. وأما الوقار في قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ فقد فسر بالعظمة فليس من هذا، وعلى الجملة فهو موقوف على ثبت في النقل.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾

يقال: سعيت في أمر فلان: إذا أصلحه أو أفسده بسعيه، وعاجزه: سابقه؛ لأنّ كل واحد منهما في طلب إعجاز الآخر عن اللحاق به، فإذا سبقه قيل: أعجزه وعجزه، والمعنى: سعوا في معناها بالفساد من الطعن فيها؛ حيث سموها: سحراً، وشعراً، وأساطير، ومن تثبيط الناس عنها سابقين أو مسابقين في زعمهم، وتقديرهم طامعين أن كيدهم للإسلام يتم لهم.

فإن قلت: كأن القياس أن يقال: إنما أنا لكم بشير ونذير، لذكر الفريقين بعده.

قلت: الحديث مسوق إلى المشركين، ويا أيها الناس ٢/ ٣١أ نداء لهم، وهم الذين قيل فيهم: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [غافر: ٨٢]، ووصفوا بالاستعجال؛ وإنما أفحم المؤمنون وثوابهم ليغاظوا.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾

﴿مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ﴾: دليل بين على تغاير الرسول والنبي، وعن النبي ـ ﷺ ـ أنه سئل عن الأنبياء، فقال: «مَائَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفاً» ح، قيل: فكم الرسل منهم: قال: «ثَلاثُمَائَةٍ وَثَلاثَةُ عَشَرَ جُمًّا غَفِيراً» (٩٨٨)، والفرق بينهما: أن الرسول من الأنبياء: من

---

٩٨٨ ـ أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢/ ٧٦) من طريق إبراهيم بن هشام الغساني عن أنس عن جده عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر، وذكر حديثاً طويلاً جداً. وفيه: قال: قلت: يا رسول الله كم الأنبياء؟ قال: «مئة ألف وعشرون ألفاً» قلت: يا رسول الله كم الرسل من ذلك؟ قال: «ثلاث مئة وثلاثة عشر جماً غفيراً... إلى آخر الحديث» وبهذا الإسناد رواه الطبراني في الكبير (٢/ ١٥٧) رقم (١٦٥١) وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٦٦ ـ ١٦٩).

والطبراني أيضاً في مكارم الأخلاق رقم (١) مختصراً وروى جزءاً من هذا الحديث الطويل ابن ماجه في سننه (٢/ ١٤١٠) كتاب الزهد، باب الورع والتقوى حديث (٤٢١٨) قال الهيثمي في المجمع (٤/ ٢١٩): «فيه إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني وثقه ابن حبان وضعفه أبو حاتم وأبو زرعة» اهـ.

ورواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٩٧) قال: حدثناه أبو الحسن علي بن الفضل بن إدريس السامري ببغداد ثنا الحسن بن عرفة بن يزيد العبدي حدثني يحيى بن سعيد السعدي البصري ثنا عبد الملك بن جريج عن عطاء عن عبيد بن عمير الليثي عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ فرواه ساكتا عليه.

=

جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه، والنبيّ غير الرسول: من لم ينزل عليه كتاب؛ وإنما أمر أن يدعو الناس إلى شريعة من قبله، والسبب في نزول هذه الآية أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ لما أعرض عنه قومه وشاقوه، وخالفه عشيرته، ولم يشايعوه على ما جاء به ـ تمنى لفرط ضجره من إعراضهم ولحرصه وتهالكه على إسلامهم ألاّ ينزل عليه ما ينفرهم، لعله يتخذ ذلك طريقاً إلى استمالتهم واستنزالهم عن غيهم وعنادهم، فاستمرّ به ما تمناه حتى نزلت عليه سورة: (والنجم)، وهو في نادي قومه؛ وذلك التمني في نفسه، فأخذ يقرؤها، فلما بلغ قوله: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾: ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾: التي تمناها، أي: وسوس إليه بما شيعها به، فسبق لسانه على سبيل السهو والغلط إلى أن قال: تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهنّ لترتجى (٩٨٩)، وروي: الغرانقة، ولم يفطن له

= وتعقبه الذهبي بقوله: قلت السعدي ليس بثقة .اهـ.

وله طريق آخر: رواه أحمد (٥/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦)، والطبراني في الكبير (٨/ ٢٥٨) رقم ٧٨٧١) من طريق أبي المغيرة ثنا معان بن رفاعة ثنا علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة قال: كان رسول الله ـ ﷺ ـ جالساً وكانوا يظنون الوحي ينزل عليه فأقصروا عنه حتى جاء أبو ذر فاقتحم فأتاه فجلس إليه فذكر حديثاً طويلاً فيه ذكر الأنبياء.

قال الهيثمي في المجمع (٣/ ١١٨): «رواه أحمد في حديث طويل والطبراني، وفيه علي بن يزيد وفيه كلام» اهـ.

قال مرة أخرى (١/ ١٦٤) ومداره علي بن زيد وهو ضعيف اهـ.

قال الحافظ: أخرجه أحمد وإسحاق من رواية معاذ بن رفاعة عن علي بن زيد عن القاسم عن أبي أمامة: «أن أبا ذر سأل رسول الله ـ ﷺ ـ: كم الأنبياء؟ فقال: مثله، وعلي ضعيف. ورواه ابن حبان من طريق إبراهيم بن هشام الغساني حدثنا أبي عن حذيفة. يعني يحيى الغساني عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر ـ فذكره في حديث طويل جداً. وأفرط ابن الجوزي، فذكره في الموضوعات، واتهم به إبراهيم بن هشام المذكور. ولم يصب في ذلك: فإنها طريقاً أخرجها الحاكم وغيره من رواية يحيى بن سعيد السعيدي عن ابن جريج عن عطاء عن عبيد بن عمير عن أبي ذر بطوله. ويحيى السعيدي ضعيف. ولكن لا يأتي الحكم بالوضع مع هذه المتابعة. انتهى.

٩٨٩ ـ رواه البزار في مسنده (٢٢٦٣ ـ كشف) حدثنا يوسف بن حماد ثنا أمية بن خالد ثنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فيما أحسب أن النبي ـ ﷺ ـ كان بمكة فقرأ سورة النجم حتى انتهى إلى قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾، فجرى على لسانه: تلك الغرانيق العلى الشفاعة منها ترتجى، قال: فسمع ذلك مشركو مكة فسروا بذلك فاشتد على رسول الله ـ ﷺ ـ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ﴾. انتهى.

ثم قال: هذا حديث لا نعلمه يروى عن النبي ـ ﷺ ـ بإسناد متصل يجوز ذكره إلا بهذا الإسناد، ولا نعلم أحداً أسند هذا الحديث عن شعبة عن أبي بشر عن سعيد عن ابن عباس إلا أمية، ولم نسمعه نحن إلا من يوسف بن حماد، وكان ثقة وغير أمية يحدث به عن أبي بشر عن سعيد بن جبير مرسلاً، وإنما يعرف هذا الحديث عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس وأمية ثقة مشهور» اهـ. =

حتى أدركته العصمة فتنبه عليه، وقيل: نبهه جبريل ـ عليه السلام ـ أو تكلم الشيطان بذلك

= والحديث رواه الطبراني أيضاً (١٢/ ٥٣) رقم (١٢٤٥٠) من طريق البزار.
ورواه ابن جرير في التفسير نحوه (٩/ ١٧٦) رقم (٢٥٣٣٣)، وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٦١)، وعزاه للضياء في المختارة ولابن مردويه في التفسير.
قال الهيثمي في المجمع (٧/ ١١٨): «رواه البزار والطبراني... ورجالهما رجال الصحيح...»، وأخرج ابن جرير (٩/ ١٧٦) رقم (٢٥٣٣١)، عن سعيد بن جبير قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾ قرأها رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى، فسجد رسول الله ـ ﷺ ـ فقال المشركون: إنه لم يذكر آلهتكم قبل اليوم بخير، فسجد المشركون معه فأنزل الله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾. وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٦١) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه، وصحح إسناده، وحديث ابن عباس ذكره البغوي في التفسير (٣/ ٢٩٢)، والواحدي في التفسير أيضاً (٣/ ٢٧٦ ـ ٢٧٧).
قال الحافظ: أخرجه البزار، والطبري، والطبراني، وابن مردويه من طريق أمية بن خالد عن شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير قال: لا أعلمه إلا عن ابن عباس «أن النبي ـ ﷺ ـ كان بمكة فقرأ سورة النجم، حتى انتهى إلى قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ فجرى على لسانه: تلك الغرانيق العلا، الشفاعة منها ترتجى، قال: فسمع بذلك مشركو مكة، فسروا بذلك. فاشتبه على رسول الله ـ ﷺ ـ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ ـ الآية، «زاد في رواية ابن مردويه: فلما بلغ آخرها سجد وسجد معه المسلمون والمشركون» ورواه الطبري من طريق سعيد بن جبير مرسلاً. وأخرجه ابن مردويه من طريق أبي عاصم النبيل عن عثمان بن الأسود عن سعيد بن جبير عن ابن عباس نحوه. ولم يشك في وصله، وهذا أصح طرق هذا الحديث. قال البزار: تفرد بوصله أمية بن خالد عن شعبة، وغيره يرويه عنه مرسلاً. وأخرجه الطبري وابن مردويه من وجه آخر عن ابن عباس. وهو من طريق العوفي عن جده عطية عنه، وأخرجه الطبري من طريق محمد بن كعب القرظي، ومن طريق قتادة، ومن طريق أبي العالية. فهذه مراسيل يقوي بعضها بعضاً. وأصل القصة في الصحيح بلفظ: «أن النبي ـ ﷺ ـ وهو بمكة ـ فسجد وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس» قال البزار: المعروف في هذه رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. وأخرجها ابن مردويه من طريقه، وأخرجه الواقدي من طريق أخرى. قلت: وفي مجموع ذلك رد على عياض حيث قال: إن من ذكر من المفسرين وغيرهم لم يسندها أحد منهم، ولا رفعها إلى صاحب إلا رواية البزار. وقد بين البزار أنه لا يعرف من طريق يجوز ذكره سوى ما ذكره وفيه ما فيه مع وقوع الشك. قلت: أما ضعفه فلا ضعف فيه أصلاً. فإن الجميع ثقات وأما الشك فيه فقد يجيء تأثيره ولو فرداً غريباً لكن غايته أنه يصير مرسلاً، إنما هو حجة عند عياض وغيره ممن يقبل مرسل الثقة، أما هو حجة إذا اعتضد عند من يرد المرسل إنما يعتضد بكثرة المتابعات. تبع ثقة رجالها. وأما طعنه فيه باختلاف الألفاظ فلا تأثير للروايات الضعيفة الواهية في الرواية القوية. فيعتمد من القصة على الرواية الصحيحة أي يعتمد على الرواية المتابعة وليس فيها ولا فيما تابعها اضطراب والاضطراب في غيرها. فيكفي، لأنه ضعيف برواية الكلبي، ويكفي ما عداها، وأما طعنه فيه من جهة المعنى فله أسوة كثيرة من الأحاديث الصحاح التي لا يؤخذ بظاهرها، بل يرد بالتأويل المعتمد إلى ما يليق بقواعد الدين. انتهى.

فأسمعه الناس، فلما سجد في آخرها سجد معه جميع من في النادي وطابت نفوسهم، وكان تمكين الشيطان من ذلك محنة من الله وابتلاء، زاد المنافقون به شكًّا وظلمة، والمؤمنون نوراً وإيقاناً، والمعنى: أن الرسل والأنبياء من قبلك كانت هجيراهم كذلك إذا تمنوا مثل ما تمنيت، مكن الله الشيطان ليلقي في أمانيهم مثل ما ألقى في أمنيتك، إرادة امتحان من حولهم، والله سبحانه له أن يمتحن عباده بما شاء من صنوف المحن وأنواع الفتن؛ ليضاعف ثواب الثابتين ويزيد في عقاب المذبذبين، وقيل: (تمنى): قرأ، وأنشد [من الطويل]:

تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلَةٍ ... تَمَنِّيَ دَاوُدَ الزَّبُورَ عَلَى رِسْلِ[1]

وأمنيته: قراءته، وقيل: تلك الغرانيق: إشارة إلى الملائكة، أي: هم الشفعاء لا الأصنام، ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ أي: يذهب به ويبطله، ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ أي: يثبتها.

﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾

والذين ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: المنافقون والشاكون، ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾: المشركون المكذبون، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ يريد: وإن هؤلاء المنافقين والمشركين، وأصله: وإنهم، فوضع الظاهر موضع الضمير قضاء عليهم بالظلم، ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: ليعلموا أن تمكين الشيطان من الإلقاء: هو الحق من ربك والحكمة، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ﴾: أن يتأوّلوا ما يتشابه في الدين بالتأويلات الصحيحة، ويطلبوا لما أشكل منه المحمل الذي تقتضيه الأصول المحكمة والقوانين الممهدة؛ حتى لا تلحقهم حيرة ولا تعتريهم شبهة ولا تزل أقدامهم، وقرئ: «لهادٍ الذين آمنوا»: بالتنوين.

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾

الضمير في ﴿مِّرْيَةٍ مِّنْهُ﴾: للقرآن أو الرسول ـ ﷺ ـ اليوم العقيم: يوم بدر؛ وإنما وصف يوم الحرب بالعقيم؛ لأنّ أولاد النساء يقتلون فيه، فيصرن كأنهن عقم لم يلدن، أو

---

(١) تقدم.

لأن المقاتلين يقال لهم: أبناء الحرب، فإذا قتلوا وصف يوم الحرب بالعقيم على سبيل المجاز، وقيل: هو الذي لا خير فيه، يقال: ريح عقيم: إذا لم تنشىء مطراً ولم تلقح شجراً، وقيل: لا مثل له في عظم أمره لقتال الملائكة ـ عليهم السلام ـ فيه، وعن الضحاك: أنه يوم القيامة، وأن المراد بالساعة: مقدّماته، ويجوز أن يراد بالساعة وبيوم عقيم: يوم القيامة، وكأنه قيل: حتى تأتيهم الساعة أو يأتيهم عذابها، فوضع (يوم عقيم) موضع الضمير.

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾

فإن قلت: التنوين في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ عن أي جملة ينوب؟

قلت: تقديره: الملك يوم يؤمنون، أو يوم تزول مريتهم؛ لقوله: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ [الحج: ٥٥].

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾

لما جمعتهم المهاجرة في سبيل الله سوّى بينهم في الموعد، وأن يعطي من مات منهم مثل ما يعطي من قتل تفضلاً منه وإحساناً، والله عليم بدرجات العاملين ومراتب استحقاقهم، ﴿حَلِيمٌ﴾: عن تفريط المفرط منهم بفضله وكرمه؛ روي أن طوائف من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ ورضي عنهم ـ قالوا: يا نبي الله، هؤلاء الذين قتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله من الخير، ونحن نجاهد معك كما جاهدوا، فما لنا إن متنا معك؟ فأنزل الله هاتين الآيتين.

﴿۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾

تسمية الابتداء بالجزاء؛ لملابسته له من حيث أنه سبب وذاك مسبب عنه كما يحملون النظير على النظير والنقيض على النقيض للملابسة.

فإن قلت: كيف طابق ذكر العفوّ الغفور هذا الموضع؟ قلت ٢/ ٣١ب: المعاقب مبعوث من جهة الله ـ عزّ وجلّ ـ على الإخلال بالعقاب، والعفو عن الجاني ـ على طريق

التنزيه لا التحريم ـ ومندوب إليه، ومستوجب عند الله المدح إن آثر ما ندب إليه وسلك سبيل التنزيه، فحين لم يؤثر ذلك وانتصر وعاقب، ولم ينظر في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾: فإن الله لعفو غفور، أي: لا يلومه على ترك ما بعثه عليه، وهو ضامن لنصره في كرته الثانية من إخلاله بالعفو وانتقامه من الباغي عليه، ويجوز أن يضمن له النصر على الباغي، ويعرّض مع ذلك بما كان أولى به من العفو، ويلوّح به بذكر هاتين الصفتين، أو دلّ بذكر العفو والمغفرة على أنه قادر على العقوبة؛ لأنه لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضدّه.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك النصر بسبب أنه قادر، ومن آيات قدرته البالغة أنه ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾، أو بسبب: أنه خالق الليل والنهار ومصرفهما فلا يخفى عليه ما يجري فيهما على أيدي عباده من الخير والشر والبغي والإنصاف، وأنه ﴿سَمِيعٌۢ﴾: لما يقولون، ﴿بَصِيرٌ﴾: بما يفعلون.

فإن قلت: ما معنى: إيلاج أحد الملوين في الآخر؟

قلت: تحصيل ظلمة هذا في مكان ضياء ذاك بغيبوبة الشمس، وضياء ذاك في مكان ظلمة هذا بطلوعها، كما يضيء السرب[1] بالسراج ويظلم بفقده، وقيل: هو زيادته في أحدهما ما ينقص من الآخر من الساعات.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾

وقرئ (تدعون): بالتاء والياء، وقرأ اليماني: و«أن ما يدعون»، بلفظ المبني للمفعول، والواو راجعة إلى «ما»؛ لأنه في معنى الآلهة، أي: ذلك الوصف بخلق الليل والنهار والإحاطة بما يجري فيهما وإدراك كل قول وفعل، بسبب أنه الله الحق الثابت إلهيته، وأن كل ما يدعى إلهاً دونه باطل الدعوة، وأنه لا شيء أعلى منه شأناً وأكبر سلطاناً.

---

(١) قوله «كما يضيء السرب» السرب ـ بالفتح ـ: والسرب ـ بالتحريك ـ: بيت في الأرض. أفاده الصحاح. (ع)

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾

قرئ: ﴿مُخْضَرَّةً﴾ أي: ذات خضر، على مفعلة، كمقبلة ومسبعة.

فإن قلت: هلا قيل: فأصبحت؟ ولم صرف إلى لفظ المضارع؟

قلت: لنكتة فيه، وهي: إفادة بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان، كما تقول: أنعم عليَّ فلان عام كذا، فأروح وأغدو شاكراً له، ولو قلت: فرحت وغدوت، لم يقع ذلك الموقع.

فإن قلت: فما له رفع ولم ينصب جوابا للاستفهام؟

قلت: لو نصب لأعطى ما هو عكس الغرض؛ لأنّ معناه إثبات الاخضرار، فينقلب بالنصب إلى نفي الاخضرار، مثاله أن تقول لصاحبك: أم تر أني أنعمت عليك فتشكر: إن نصبته فأنت ناف لشكره شاك تفريطه فيه، وإن رفعته فأنت مثبت للشكر، وهذا وأمثاله مما يجب أن يرغب له من اتسم بالعلم في علم الإعراب وتوقير أهله، ﴿لَطِيفٌ﴾: واصل علمه أو فضله إلى كل شيء، ﴿خَبِيرٌ﴾: بمصالح الخلق ومنافعهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾

﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: من البهائم مذللة للركوب في البر، ومن المراكب جارية في البحر، وغير ذلك من سائر المسخرات، وقرئ: (والفلك): بالرفع على الابتداء، ﴿أَن تَقَعَ﴾: كراهة أن تقع ﴿إِلَّا﴾: بمشيئته ﴿أَحْيَاكُمْ﴾: بعد أن كنتم جماداً تراباً، ونطفة، وعلقة، ومضغة، ﴿لَكَفُورٌ﴾: لجحود؛ لما أفاض عليه من ضروب النعم.

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾

هو نهي لرسول الله ـ ﷺ ـ أي: لا تلتفت إلى قولهم ولا تمكنهم من أن ينازعوك، أو هو زجر لهم عن التعرض لرسول الله ـ ﷺ ـ بالمنازعة في الدين وهم جهال لا علم عندهم وهم كفار خزاعة، روي أن بديل بن ورقاء وبشر بن سفيان الخزاعيين وغيرهما قالوا

للمسلمين: ما لكم تأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتله الله! يعنون: الميتة، وقال الزجاج: هو نهي له ـ ﷺ ـ عن منازعتهم، كما تقول: لا يضاربنك فلان، أي: لا تضاربه، وهذا جائز في الفعل الذي لا يكون إلا بين اثنين ﴿فِي ٱلْأَمْرِ﴾: في أمر الدين، وقيل: في أمر النسائك، وقرئ: فلا ينزعنك، أي: اثبت في دينك ثباتاً لا يطمعون أن يجذبوك ليزيلوك عنه، والمراد: زيادة التثبيت للنبي ـ ﷺ ـ بما يهيج حميته ويلهب غضبه لله ولدينه؛ ومنه قوله: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٨٧]، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦]، وهيهات أن ترتع همة رسول الله ـ ﷺ ـ حول ذلك الحمى؛ ولكنه وارد على ما قلت لك من إرادة التهييج والإلهاب، وقال الزجاج: هو من نازعته فنزعته أنزعه، أي: غلبته، أي: لا يغلبنك في المنازعة.

فإن قلت: لم جاءت نظيرة هذه الآية[1] معطوفة بالواو، وقد نزعت عن هذه؟

قلت: لأنّ تلك وقعت مع ما يدانيها ويناسبها من الآي الواردة في أمر النسائك، فعطفت على أخواتها، وأما هذه فواقعة مع أباعد عن معناها فلم تجد معطفاً.

﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾﴾

أي: وإن أبوا للجاجهم إلا المجادلة بعد اجتهادك ألاّ يكون بينك وبينهم تنازع، فادفعهم بأن الله أعلم بأعمالكم وبقبحها وبما تستحقون عليها من الجزاء فهو مجازيكم به، وهذا وعيد وإنذار، ولكن برفق ولين.

﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾

﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ ٢/ ٣٢أ: خطاب من الله للمؤمنين والكافرين، أي: يفصل بينكم بالثواب والعقاب ومسلاة للنبي ـ ﷺ ـ مما كان يلقى منهم، وكيف يخفى عليه ما يعملون، ومعلوم عند العلماء بالله أنه يعلم كل ما يحدث في السموات والأرض، وقد كتبه في اللوح قبل حدوثه، والإحاطة بذلك وإثباته وحفظه عليه، ﴿يَسِيرٌ﴾؛ لأن العالم الذات لا يتعذر عليه ولا يمتنع تعلق بمعلوم[2].

---

(١) قوله «نظيرة هذه الآية» هي قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ إلخ. (ع)

(٢) قال محمود: «معناه أن الله عالم بالذات لا يتعذر عليه تعلق بمعلوم» قال أحمد: وقد تقدم مثله وأنكرنا عليه تحميله القرآن ما لا يحتمله، فإن الأعلم في اللغة: ذو العلم الزائد المفضل على علم =

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾

﴿وَيَعْبُدُونَ﴾: ما لم يتمسكوا في صحة عبادته ببرهان سماوي من جهة الوحي والسمع، ولا ألجأهم إليها علم ضروري، ولا حملهم عليها دليل عقلي، ﴿وَمَا﴾: للذين ارتكبوا مثل هذا الظلم من أحد ينصرهم ويصوّب مذهبهم.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾

﴿ٱلْمُنكَرَ﴾: الفظيع من التجهم والبسور[1]، أو الإنكار، كالمكرم بمعنى: الإكرام، وقرئ: «يعرف»، والمنكر، والسطو: الوثب والبطش، قرئ: (النار): بالرفع، على أنه خبر مبتدأ محذوف، كأنّ قائلاً قال: ما هو؟ فقيل: النار، أي: هو النار، وبالنصب على الاختصاص، وبالجرّ على البدل من: ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ﴾: من غيظكم على التالين وسطوكم عليهم، أو مما أصابكم من الكراهة والضجر بسبب ما تلي عليكم، ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ﴾: استئناف كلام، ويحتمل أن تكون (النار): مبتدأ، و(وعدها): خبراً، وأن يكون حالاً عنها إذا نصبتها أو جررتها بإضمار «قد».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾

فإن قلت: الذي جاء به ليس بمثل، فكيف سماه مثلاً؟

قلت: قد سميت الصفة أو القصة الرائعة الملتقاة بالاستحسان والاستغراب: مثلاً؛ تشبيهاً لها ببعض الأمثال المسيرة؛ لكونها مستحسنة مستغربة عندهم، قرئ: (تدعون): بالتاء والياء، ويدعون: مبنيًا للمفعول، ﴿لَن﴾: أخت «لا» في نفي المستقبل، إلا أن «لن»

= غيره، فكيف يفسر بما ينفي صفة العلم البتة؟ هب أن الأدلة العقلية لا وجود لها، والله الموفق للصواب.

(١) قوله «التجهم والبسور» كل منهما: كلوح الوجه. أفاده الصحاح. (ع)

تنفيه نفياً مؤكداً، وتأكيده ههنا الدلالة[1] على أن خلق الذباب منهم مستحيل مناف لأحوالهم، كأنه قال: محال أن يخلقوا.

فإن قلت: ما محل: ﴿وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾؟

قلت: النصب على الحال، كأنه قال: مستحيل أن يخلقوا الذباب مشروطاً عليهم اجتماعهم جميعاً لخلقه وتعاونهم عليه، وهذا من أبلغ ما أنزله الله في تجهيل قريش واستركاك عقولهم، والشهادة على أن الشيطان قد خزمهم بخزائمه[2]؛ حيث وصفوا بالإلهية ـ التي تقتضي الاقتدار على المقدورات كلها، والإحاطة بالمعلومات عن آخرها ـ صوراً وتماثيل يستحيل منها أن تقدر على أقل ما خلقه وأذله وأصغره وأحقره، ولو اجتمعوا لذلك وتساندوا، وأدل من ذلك على عجزهم وانتفاء قدرتهم: أن هذا الخلق الأقل الأذل لو اختطف منهم شيئاً فاجتمعوا على أن يستخلصوه منه لم يقدروا، وقوله: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾: كالتسوية بينهم وبين الذباب في الضعف، ولو حققت وجدت الطالب أضعف وأضعف؛ لأن الذباب حيوان، وهو جماد، وهو غالب وذاك مغلوب، وعن ابن عباس: أنهم كانوا يطلونها بالزعفران، ورءوسها بالعسل، ويغلقون عليها الأبواب، فيدخل الذباب من الكوى فيأكله.

﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾

﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أي: ما عرفوه حق معرفته، حتى لا يسموا باسمه من هو منسلخ عن صفاته بأسرها، ولا يؤهلوه للعبادة، ولا يتخذوه شريكاً له: إن الله قادر غالب، فكيف يتخذ العاجز المغلوب شبيهاً به؟

﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾

هذا ردّ لما أنكروه من أن يكون الرسول من البشر، وبيان أن رسل الله على ضربين: ملائكة وبشر، ثم ذكر أنه ـ تعالى ـ درّاك للمدركات، عالم بأحوال المكلفين ما مضى منها وما غبر، لا تخفى عليه منهم خافية، وإليه مرجع الأمور كلها، والذي هو بهذه الصفات، لا يسأل عما يفعل، وليس لأحد أن يعترض عليه في حكمه وتدابيره واختيار رسله.

---

(١) قوله «الدلالة» لعله «للدلالة» كعبارة النسفي. (ع)

(٢) قوله «إن الشيطان قد خزمهم بخزائمه» في الصحاح، خزمت البعير بالخزامة، وهي حلقة من شعر تجعل في وترة أنفه، يشد فيها الزمام. (ع)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾

للذكر شأن ليس لغيره من الطاعات، وفي هذه السورة دلالات على ذلك، فمن ثمة دعا المؤمنين أولاً إلى الصلاة التي هي ذكر خالص، ثم إلى العبادة بغير الصلاة كالصوم والحج والغزو، ثم عمّ بالحث على سائر الخيرات، وقيل: كان الناس أوّل ما أسلموا يسجدون بلا ركوع ويركعون بلا سجود، فأمروا أن تكون صلاتهم بركوع وسجود، وقيل: معنى ﴿وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾: اقصدوا بركوعكم وسجودكم وجه الله، وعن ابن عباس في قوله: ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾: صلة الأرحام ومكارم الأخلاق، ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ أي: افعلوا هذا كله وأنتم راجون للفلاح طامعون فيه، غير مستيقنين ولا تتكلوا على أعمالكم، وعن عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي سُورَةِ الْحَجِّ سَجْدَتَانِ؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِنْ لَمْ تَسْجُدْهُمَا، فَلاَ تَقْرَأْهُمَا» (٩٩٠)، وعن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ فضّلت سورة الحج بسجدتين (٩٩١)، وبذلك احتج الشافعي ـ رضي الله عنه ـ فرأى سجدتين في سورة الحج، وأبو حنيفة وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ لا يرون فيها إلا سجدة واحدة؛ لأنهم يقولون: قرن السجود بالركوع؛ ٢/ ٣٢ب فدل ذلك على أنها سجدة صلاة لا سجدة تلاوة.

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾

---

٩٩٠ ـ أخرجه أبو داود (١/ ٤٤٦) كتاب الصلاة، باب تفريع أبواب السجود وكم سجدة في القرآن حديث (١٤٠٢)، والترمذي (٢/ ٤٧٠ ـ ٤٧١) أبواب الصلاة، باب ما جاء في السجدة في الحج حديث (٥٧٨)، وأحمد في المسند (٤/ ١٥١ ـ ١٥٥)، والدارقطني (١/ ٤٠٨)، والبيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٣١٧)، وفي المعرفة (٢/ ١٥٣) رقم (١١٠٦)، والحاكم في المستدرك (١/ ٢٢١)، وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف للطبراني في الكبير.

قال الحافظ: لم أره بصيغة المواجهة، وإنما أخرجه أبو داود والترمذي وأحمد والدارقطني والطبراني والحاكم؛ كلهم من رواية ابن لهيعة عن فرج بن ماهان عن عفية بلفظ: «ومن لم يسجدهام فلا يقرأهما» قال الترمذي: إسناده ليس بالقوي. انتهى.

٩٩١ ـ ذكره الشافعي في الأم (١/ ١٣٨) عن عمر ورواه البيهقي في المعرفة ١/ ١٥٢ رقم (١١٠٣).

﴿وَجَٰهِدُواْ﴾: أمر بالغزو وبمجاهدة النفس والهوى وهو الجهاد الأكبر، عن النبي ـ ﷺ ـ أنه رجع من بعض غزواته فقال: «رَجَعْنَا مِنَ الْجِهَادِ الأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الأَكْبَرِ» (٩٩٢) ﴿فِي ٱللَّهِ﴾ أي: في ذات الله ومن أجله، يقال: هو حق عالم، وجدّ عالم، أي: عالم حقًّا وجدًّا، ومنه: ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾.

فإن قلت: ما وجه هذه الإضافة، وكان القياس: حق الجهاد فيه أو حق جهادكم فيه، كما قال: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ﴾؟

قلت: الإضافة: تكون بأدنى ملابسة واختصاص، فلما كان الجهاد مختصاً بالله من حيث أنه مفعول لوجهه ومن أجله، صحت إضافته إليه، ويجوز أن يتسع في الظرف؛ كقوله [من الطويل]:

وَيَوْماً شَهِدْنَاهُ سُلَيْماً وَعَامِراً[1] . . . . . .

﴿ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾: اختاركم لدينه ولنصرته، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾: فتح باب التوبة للمجرمين، وفسح بأنواع الرخص والكفارات والديات والأروش؛ ونحوه قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وأمّة محمد ـ ﷺ ـ هي الأمة المرحومة الموسومة بذلك في الكتب المتقدمة.

نصب الملة بمضمون ما تقدّمها، كأنه قيل: وسع دينكم توسعة ملة أبيكم، ثم حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه، أو على الاختصاص، أي: أعني بالدين ملة أبيكم؛ كقولك: الحمد لله الحميد.

فإن قلت: لم يكن ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ أبا للأمّة كلها.

---

٩٩٢ ـ وقال الزيلعي (٢/ ٣٩٥): غريب جداً وذكره الثعلبي هكذا من غير سند» وعزاه أيضاً للنسائي في كتاب الكنى وقد روى البيهقي في الزهد الكبير رقم (٣٧٣) أخبرنا علي بن أحمد بن عبدان أنبأنا أحمد بن عبيد ثنا تمتام ثنا عيسى بن إبراهيم ثنا يحيى بن يعلى عن ليث عن عطاء عن جابر قال: «قدم على رسول الله ـ ﷺ ـ قوم غزاة فقال ـ ﷺ ـ: قدمتم خير مقدم من جهاد الأصغر إلى جهاد الأكبر قيل وما جهاد الأكبر؟ قال مجاهدة العبد هواه» ثم قال وهذا إسناد فيه ضعف.
قال الحافظ: هكذا ذكره الثعلبي بغير سند، وأخرجه البيهقي في الزهد من حديث جابر، قال «قدم على رسول الله ـ ﷺ ـ قوم غزاة. فقال: قدمتم بخير مقدم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر. قيل: وما الجهاد الأكبر؟ قال: مجاهدة العبد هواه» قال: فيه ضعف، قلت: هو من رواية عيسى بن إبراهيم عن يحيى بن يعلى عن ليث بن أبي سليم، والثلاثة ضعفاء، وأورده النسائي في الكنى من قول إبراهيم بن أبي عبلة، أحد التابعين من أهل الشام. انتهى.

---

(١) تقدم.

قلت: هو أبو رسول الله ـ ﷺ ـ فكان أبًا لأمته؛ لأنّ أمة الرسول في حكم أولاده، ﴿هُوَ﴾: يرجع إلى الله تعالى، وقيل: إلى إبراهيم؛ ويشهد للقول الأوّل قراءة أبيّ بن كعب: الله سماكم، ﴿مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا﴾ أي: من قبل القرآن في سائر الكتب وفي القرآن، أي: فضلكم على الأمم وسماكم بهذا الاسم الأكرم، ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾: أنه قد بلغكم، ﴿وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾: بأنّ الرسل قد بلغتهم، وإذ خصكم بهذه الكرامة والأثرة، فاعبدوه وثقوا به ولا تطلبوا النصرة والولاية إلا منه؛ فهو خير مولى وناصر.

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْحَجِّ أُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ كَحَجَّةٍ حَجَّهَا، وعُمرةٍ أَعْتَمَرَهَا بَعَدَدِ مَنْ حَجَّ وَاعْتَمَرَ فِيمَا مَضَىٰ وَفِيمَا بَقِيَ» (٩٩٣).

---

٩٩٣ ـ تقدم برقم (٣٤٦).

قال الحافظ: أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبي بن كعب بالإسناد المذكور في سورة آل عمران. انتهى.

obeikandl.com